رواية

نهاية أمنجي

أول عمل روائي كبير للكاتب

ياسر عبد الكريم

الكتاب:ياسر عبد الكريم - رواية
الكاتب:الهادي علي راضي تاريخ النشر : الطبعة الأولى 2021م
رقم الإيداع:67674/2021
الترقيم الدولي: 9789776597297

الناشر ويلوز هاوس للطباعة والنشر

جمهورية جنوب السودان جوبا .كاتور .مربع ٨ جوار مركز جيران
www.jubabook.com
www.willowshouse.net
gatawillow@gmail.com
Willowshouse3@gmail.com
+211927302302

حقوق النشر محفوظة للمؤلف والناشر ©
لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو اي جزء منه, أو تخزينه كنسخة ألكترونية او نقله باي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

دار ويلوز هاوس غير مسؤولة عن اراء المؤلف وأفكاره, وتعبر الآراء والافكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

المقدمة

مـن أخطائنـا أننـا نبـدأ مشـاريعنا كبـيرة ثـم يدركنـا الملـل والضجـر، وتظهـر معوقـات أخـرى تجعلنـا نتوقـف في منتصـف الطريـق أو في أقـل مـن ذلـك.. والأمثلـة كثـيرة وعـدَّة.. وكان لا بُـدَّ أن نغـير هـذا السـلوك السـوداني الأصيـل.. إننـا نبـدأ بدايـة متوهجـة والتـي تنطفـئ بسرعـة معناهـا أننـا نتحمـس بسرعـة وتخمـد الحماسـة بسرعـة.. بعبـارة أخـرى «نارنـا قـش» والقـش يشـتعل بسرعـة وينطفـئ بالسرعـة نفسـها ويعـود كل شيء إلى مـا كان عليـه قبـل ذلـك.. كأننـا أردنـا الانطفـاء السريـع فخلقنـا كل مقدمـات هـذا النجـاح الناقـص، أي كأننـا قررنـا التوقـف عندمـا بدأنـا، أو كأننـا قررنـا ألا ننجـح عندمـا نجحنـا، لمـاذا؟ لأننـا يجـب أن نبكـي عـلى مـا فـات.. مـع أنـه لم يفـت بعـد، فـلا يـزال هنـاك الكثـير الـذي يمكـن إكمالـه، ولكننـا مدمنـو النظـر إلى الـوراء وإلى المـاضي الـذي نتغنـى بـه في أسـى وحـزن، ولـن ندمـن المسـتقبل.

ومـن يظـن الشـعب السـوداني بـلا عيـوب فهـو مخطـئ؛ النظـام السـابق أصابـه بكثـير مـن العيـوب كحـال أي نظـام فـاشي ديكتاتـوري، والنظـام الدكتاتـوري مهـما قـدَّم مـن إنجـازات فإنـه في النهايـة يقـود البـلاد إلى الهاويـة.. فـإذا

كنت موهوبًا في السودان فأنت في مشكلة كبرى، وسيكون وضعك أفضل لو كنت عاديًّا أو حتى بليدًا؛ لأن النظام مصمم أصلًا للعاديين، فهو يضيق بالنوابغ، ولذلك ما تخلفه النظم الفاشية من عيوب سلوكية للمجتمع أسوأ بكثير من عيوبها الاقتصادية.

علينا أن نناقش هذه العيوب ونتعرَّفها لكي نعالجها، قبل أن نحمِّل الأجيال القادمة ما سوف تعجز في المستقبل عن تحمله، وما يجعل تلك الأجيال تلعننا لسوء تصرفنا وسفاهة تصرفاتنا في الماضي.

ونتعرف على الذي ينقصنا؟ وما الذي يجب دراسته لحالتنا حتى ينصلح حالنا؟ هذا ما سيُناقش بطريقة فريدة ومختلفة تمامًا خلال هذا الكتاب بقصص ووقائع حقيقية شيقة. وبشخصيات من خيال الكاتب؛ بطلها عماد ضابط جهاز الأمن المثير للجدل وما وصل إليه في نهاية حياته.

إهـداء

بـكل إخـلاص وحـب وتقديـر، واسترسـل بفيـض مـن الشـكر كأقـل تقديـر عـلى اعـتراف بجميـل الشـهداء الذيـن ضحـوا في سـبيل الحريـة؛ بفضلهـم اسـتردوا لنـا حقنـا وأعـادوا إنسـانيتنا أهديهـم هـذا الكتـاب.

وإلى جيـل التغيـير.. الـذي كان تواقًـا للحريـة ومـات مـن أجلهـا قبـل أن يراهـا ويعرفهـا.. هـذا الجيـل أعظـم مـن وطأت قدمـه أرض الوطـن.

هـذا الجيـل الـذي أحـرج أجيـالا سـبقته تواءمـوا مـع المسـتبد وسـاعدوه، فـكان لا يريـد منهـم أن يدفعـوه دفعًـا.

بـل كان يريدهـم أن يصممـوا أن لا يخدمـوه أو يشـاركوه.. وأن يكفـوا عـن مسـاعدته فقـط.. فـإن الطغـاة كالنـار تصبـح كبـيرة وتـزداد اشـتعالًا وتـأكل وتلتهـم كل شي كلـما ألقيـت عليهـا حطبًـا فـإن لم تسـتطع أن تخمدهـا بالمـاء يكفـي ألا تمدهـا بالحطـب.. ولحقنتـم دمـاء عزيـزة سـالت.. وأرواح غاليـة أزهقـت.. ووطـن عزيـز لم يتشـظَّى ويتقسـم.

وُلِـد عـماد في قريـة عبـد الله بتفتيـش الجامـوس في مـشروع الجزيـرة في عـام 1972.

والـده الحـاج سـاتي محمـد أحمـد سـاتي يعمـل خفـير ترعـة بالمـشروع.

جـده محمـد أحمـد سـاتي جـاء إلى الجزيـرة مـن شـمال السـودان في بدايـات المـشروع، وكان معـه ابنـه سـاتي - والـد عـماد - صغـيرًا، وكان مـن مريـدي الشـيخ أبـو عاقلـة ود الشـيخ الريـح ود الشـيخ حمـد النيـل.

وأدخـل ابنـه سـاتي - والـد عـماد - خـلاوي الشـيخ عبـد الباقـي أزرق طيبـة، تعلـم فيهـا القـران وحفظـه وجـوَّده.

وتـزوج سـاتي - والـد عـماد - الحاجـة فاطمـة مـن قريـة عبد الله في الجزيـرة.. مـن أسرة تنحـدر مـن شـمال كردفـان، والشـيخ أبـو عاقلـة هـو مـن اختارهـا لـه؛ لأن والدهـا مـن جـيران الشـيخ..

وأنجـب عـماد بعـد ابنـه البكـر يوسـف.. وبعـد أن أصبـح عـماد عمـره خمسـة سـنوات انتقـل والـده مـن تفتيـش الجامـوس إلى تفتيـش مكتـب طيبـة.

يقـع مـشروع الجزيـرة الزراعـي في وسـط السـودان بـين النيلـين الأزرق والأبيـض، في السـهل الطينـي الممتـد مـن منطقة سـنار إلى جنـوب الخرطـوم عاصمـة السـودان.

وبدايـة هـذا المـشروع التجريبيـة كانـت بقريـة كركـوج الجزيـرة عـام 1911، لمـدِّ المصانـع البريطانيـة بحاجتهـا مـن خـام القطـن، الـذي شـكَّل أيضًـا العمـود الفقـري لاقتصـاد السـودان بعـد الاسـتقلال. ومسـاحته تقريبًـا أكثـر مـن مليـوني

فـدان. ويديـر المـشروع محافـظ المـشروع ومكتبـه بمدينـة بركات ثـم مكاتـب تسـمى التفتيـش.

ويديـر التفتيـش المفتـش الزراعـي، ويسـكن مـع مرؤوسـيه فيـما يعـرف بالسرايـا، وهـي مكتـب تابـع لإدارة مـشروع الجزيـرة، وبداخـل السرايـا بيـوت جميـع الموظفـين والعـمال، بـما فيهـم المفتـش الزراعـي، الـذي يتميـز منزلـه عـن بقيـة سـكان السرايـا.

والمكتـب يتكـون مـن.. المفتـش الزراعـي.. الباشـكاتب.. المحاسـب.. مديـر المخـازن.. الغفـير وبعـض العـمال الموسـميين من يستعان بهم من داخل القرية.

والبيـوت في داخـل السرايـا متلاصقـة، والنـاس يتعارفـون ومتكافلـون ومتداخلـون في هـذه البيـوت؛ لأنهـم غربـاء عـن بعضهـم، وهـذا هـو سرُّ الاحـترام والـود والتقديـر الـذي يسـود فيـما بينهـم.

عندمـا وجـدت فرصـة لزيـارة هـذه السرايـا، أو كـما نسـميه «المكتـب»، أعـادت إلى نفـسي الذكريـات المؤلمـة، وكلـما أنظـر إليهـا وهـي خاويـة بعـد أن طالهـا الدمـار الـذي أصـاب كل مفاصـل الدولـة، والـذي لم يـترك البـشر والحجـر، كنـت أسـمع البيـوت تئـن وتبكـي.. وأنصـت لهـا يأتينـي صمـت.. ثـم صـدى مـا توسـوس بـه نفـسي.. فلـم أتمالـك دموعـي وحـسرتي.. وأنـا أرى والسرايـا التـي قضينـا فيهـا أيـام الطفولـة العظيمـة.. وأعـادت لي ذاكـرتي.. منـزل المفتـش وهيبتـه وأولاده

النظيفين والمختلفين عنَّا في لبسهم وفي طريقة أكلهم وحتى في طريقة كلامهم.. وتذكرت الشجر الأخضر.. والزهور الشامخة وبيوت المكتب وهيئتها.. وطريقة بنائها وتصميمها تدل على عزها وتاريخها.. وذهب كل شيء فيها إلا هيكلها.. وتعدد جماليات بيت المفتش وموقعه.. فكم من مفتش زراعي وكم من أسرة تربت في هذا العز وهذا الشموخ، وأسأل نفسي أين هؤلاء جميعهم؟! ويا تُرى ماذا حدث لهم؟! وهل تأتيهم الفرصة للذكرى؟ وهل مستعدون لاجترار الذكريات ومرارتها.. وحزنهم على ما حدث من خراب إذا سنحت لهم فرصة زيارة من غمرهم بالسعادة والعز في يوم من الأيام؟ سألت الناس.. وسألت كل من يأتي بالطريق وأنا أطالع هذا الدمار ما من إجابة؟ ثم يذهب ويتركني غارقًا مع ذكرياتي وحسرتي.. الكل نسي ذلك التاريخ وذلك المجد؛ إنها قسوة الحياة ولا أحد يدري شيئًا، الكل تنكر.. والجميع نسوا على الرغم من إننا لم نوغل في التاريخ حتى ننسى.. وستكون في قائمة المنسيات بعد عقود قليلة.. المهم تعددت الذكريات والمآسي.. والدمار واحد.

البشير المخلوع المسؤول الأول عن دمار السودان، ومشروع الجزيرة واحد من أفظع المجازر التي ارتكبها في حياته. في أحد لقاءاته المدفوعة لكي يُوجِد مبررًا لهذه الجريمة كعادته قال: «إن هذا المشروع كان عالة على الدولة».. هذه الجملة صدمت أهل الجزيرة، حتى تراب

الجزيـرة، ولـو قـام المسـتر جنيسـكل البريطـاني، مؤسـس المـشروع، مـن قـبره لصعـق مـن هـذه المعلومـة، لكـن عندمـا يـأتي العيـب مـن أهـل العيـب عليـك بالصمـت.

مـشروع الجزيـرة يـا سـادتي كان ينتـج بالإضافـة إلى القطـن المحاصيـل الأخـرى، كالقمـح والـذرة الرفيعـة والمحاصيـل البسـتانية.. وكان في موسـم الزراعـة تـأتي إليـه العمالـة مـن جميـع أنحـاء السـودان، وحتـى مـن دول الجـوار إفريقيـا، تشـاد، إثيوبيـا، إفريقيـا الوسـطى، النيجـر، ومـن صعيـد مـصر، حتـى اسـتوطنوا في السـودان بسـبب هـذا المـشروع العظيـم، وفي موسـم الحصـاد تـأتي العمالـة مـن غـرب السـودان ومـن شرق النيـل، والـكل يـأتي بخيراتـه مـن الغـرب؛ يأتـون بالعسـل والسـمن والكركـدي والقنقليـز، ومـن شرق النيـل تـأتي البطانـة بمواشـيها مـن أغنـام وأبقـار، كان تبـادلًا ثقافيًّـا اجتماعيًّـا اقتصاديًّـا بمعنـى الكلمـة، وعنـد الانتهـاء مـن موسـم الحصـاد ترجـع العمالـة ومعهـم مـا يسـاعدهم عـلى الزراعـة في مناطقهـم

في فصـل الخريـف يزرعـون ويحصـدون، ثـم يجهـزون للعـودة إلى الجزيـرة مـرة أخـرى وهكـذا كانـت الحيـاة سلسـة لا عنصريـة ولا جـوع ولا أمـراض، وكان يعـم الخـير في الجزيـرة بالألبـان ومشـتقاتها؛ الـروب الرايـب والسـمن الـذي يصنـع في البيـوت، وكان أهـل الجزيـرة لا يعرفـون الجـوع، ويقاومـون الأمـراض بشـتى أنواعهـا، وذلـك للتغذيـة السـليمة. لا توجـد سرطانـات ولا فشـل الكلـوي ولا كبـد الوبائـي.. وكانـت المبيـدات المسـتخدمة معروفـة ولا تشـكل خطـرًا لا على الإنسـان

ولا على الحيوان؛ لأن القائمين على المشروع تحرسهم نظافة اليد والضمير، لا ينظرون إلا إلى مصلحة الإنسان أولًا ثم المشروع.. وتُرشُّ البيوت في الجزيرة بمبيدات لمقاومة البعوض الناقل للملاريا، وعلى الرغم من قلة الأمراض فقد كانت الشفخانات منتشرة في قرى الجزيرة ومكتملة الطاقم من ممرض إلى مساعد طبي، وتتوافر فيها الأدوية المجانية، وكانت في الصيدلية الصغيرة توجد «السلفة» وغلاية الحقن البيضاء (إناء لتعقيم الحقن).. وشراب السعال في إناء صغير فضي نظيف.. وكانوا يأدون عملهم بكل ضمير، وكانوا مؤهلين ويُدرَّبون بصورة مستمرة، ومقدرات المساعد الطبي كانت تساوي مقدرات طبيب هذه الأيام

لا غياب ولا غضب من المراجعين، الكل مبسوط.. وكانت تُقام المواسم والمعارض الزراعية ليعرضوا كل ما هو غير مألوف من إنتاج، وكانت توزع الجوائز على المزارعين في ذلك المعرض السنوي الذي يُقام في الإرشاد الزراعي بمنطقة مساعد إدارة الإرشاد الزراعي، وذلك لتحفيز المزارعين.. وكانت هنالك السينما المتجولة للتوعية بالأمراض وكيفية استخدام المبيدات، نظرًا إلى قلة وسائل الإعلام الأخرى، فلم يعجزوا في كيفية التوعية، وهذا يرجع إلى اهتمامهم بإنسان المشروع.

وكانت على إثر هذا المشروع الضخم تدور مصانع النسيج والمحالج، وكانت بركات ومارنجان إدارة المشروع

بها كل وسائل الترفيه والإبداع.. وكانت هنالك وزارة الري والمؤسسة الفرعية للحفريات اللتان تعملان للمشروع.. ولقد ذهبت كل هذه المؤسسات وتوقفت كل هذه المصانع والمحالج وشردت الأسر.. وعندما ذهبت في زيارة إلى مارنجان وبركات فلم أرَ الطرماج (قطر حديد الجزيرة الذي ينقل القطن إلى المحالج) ولم أرَ الزراعة والأزهار المتبسمة التي وضعت بحرفية، وضمير الذي غاب الآن بغياب المشروع، والتي كانت تستقبل الزائرين على جوانب الطريق، وكل الذي رأيته ليتني لم أره.. رأيت دمارًا.. غياب للإنسان، وأكبر ورشة هندسة زراعية في السودان يعشش فيها الطير. فقد كانت تعجُّ بالمبدعين والمهندسين، وكان العمل فيها أربعة وعشرين ساعة نظام وضعه الإنجليز لم يتغير.. وتأثرت على إثر هذا الدمار جميع مدن وقرى الجزيرة.

وهذه البيوت وهذه السرايا، بل وهذا المشروع العظيم وجميع هذه الأطلال التي بكيت عليها ويبكيها وينتحب عليها أهلها كانت من صناعة الإنجليز، هم من أسس هذا المشروع العملاق وكل ما يصنعونه متين وجيد، حتى بعد رحيلهم من السودان وبعد الاستقلال كانت صناعتهم أو نظامهم أو أخلاقهم مضرب مثل وما زال.. إذا لماذا كان الإنجليز مضرب مثل لنا وكانوا يتقنون كل شيء؟

هذه البيوت التي بنوها وتركوها وهذا المشروع الزراعي الضخم، حتى السكة حديد وبيوتها وداخليات

المدارس والمستشفيات، وكل حاجة كانت متقنة، ولماذا نحن كل صناعتنا نتوقع انهيارها في أي لحظة، ولماذا أصبحنا لا نتقن بالرغم من أن ديننا يحثنا على ذلك؛ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»، فهل الإنجليز أفضل أخلاقا من السودانيين؟! طبعًا لا.. فإذا أحللت الشعب الأوروبي بسوداني والسوداني بأوروبي مع وجود الأنظمة والقوانين ستكون النتيجة كما هي؛ لأن الأنظمة هي التي تنقل العدوى إلى المواطن. إليك هذه الواقعة التي حدثت في بلاد الإنجليز:

جوردون براون، زعيم حزب العمال ورئيس وزراء بريطانيا. كان يجول جولة انتخابية في مدينة روكدال في مقاطعة مانشستر، وفي أثناء حديثه مع الناس في الشارع أوقفته بريطانية اسمها جيليان، موظفة متقاعدة، ومن أمام كاميرات التليفزيون اشتكت خلالها المهاجرين وأنهم يأخذون فرص العمل من البريطانيين.

حاول براون أن يقنعها بصحة سياسته في التعامل معهم، لكنها متمسكة برأيها، فما كان من براون إلا أنه أنهى الحوار ثم صافحها وعاد إلى سيارته.

لكن براون، من سوء حظه، نسي أن يغلق الميكروفون المعلق في سترته، والميكروفون ينقل إلى شبكات التليفزيون حديث براون إلى مساعديه في السيارة. وكان غاضبًا من حواره مع السيدة، وما إن دخل السيارة حتى قال

لمساعديه: من الذي اقترح لقائي بهذه السيدة؟! إنها متعصبة.

ولقطت وسائل إعلام كلمات براون وعمَّت أنحاء بريطانيا: رئيس الوزراء أهان مواطنة بريطانية واتهمها بالتعصب لأنها تخالفه في الرأي، فغضبت السيدة غضبًا شديدًا بعدما علمت بذلك، واتصل براون بها للاعتذار فلم يكن كافيًا، ثم من على شاشة التليفزيون البريطاني، وكرر له المذيع ما قاله في التسجيل ثم سأله: هل تلوم نفسك على هذا الذي قلته؟ فأجاب رئيس الوزراء أنه يلوم نفسه ولن يكرر ذلك في المستقبل، وأعلن اعتذاره لجيليان أمام الشعب البريطاني، وأعلن أنه أخطأ ونادم. وقبلت جليان اعتذاره.

في الوقت نفسه الذي كان فيه براون يلح في الاعتذار للمرأة العجوز لمجرد أنه وصفها بالمتعصبة في حديث مسجل بالخطأ، كان الرئيس المخلوع عمر البشير يصف الشعب كله بشذاذ الأفاق، وتحدى الشعب بأن الذي يريد أن يسقطه يطالعنا في الشارع، وقال لو دقت «المزيكا» كل فار يدخل جحره، والذين اعتصموا أمام القيادة مطالبين بالحرية والعدالة ضُرِبوا وعُذِّبوا وقُتِلوا بالرصاص.

الدول الغربية أو الديمقراطية تتعامل مع المواطنين بكل احترام، في حين تتعامل حكومتنا الديكتاتورية مع مواطنيها باعتبارهم مجرمين وحيوانات ويستحقون القتل.

قـد يتبـادر للكثيريـن أن السـبب أخلاقـي؛ السـبب ليـس أخلاقيًّـا وإنـما السـبب سـياسي؛ لأنـه لا يوجـد دليـل عـلى أن بـراون أفضـل أخلاقيًّـا مـن عمـر البشـير، لكـن يوجـد دليـل عـلى أن بـراون وصـل السـلطة عـن طريـق انتخابـات واختـاره الشـعب، مـن ثَـمَّ فهـو خـادم للشـعب، وأن البشـير لم يـأتِ بانتخابـات حـرة ديمقراطيـة، فـلا يهمـه القانـون ولا يهتـم بنـشر العدالـة.. وإن إحسـاس الإنسـان بالعدالـة يخـرج أفضـل مـا فيه مـن صفـات إنسـانية، وبالمقابـل فـإن إحساسـه بالظلـم واليـأس غالبًـا مـا يدفعانـه إلى الانحـراف والعـدوان عـلى الآخريـن. وسـينتشر العنـف والفسـاد والفـوضى بـين النـاس ومهـما تكـن بلاغـة المواعـظ التـي نلقيهـا في المسـاجد، فإننـا لـن نقـضي أبـدًا عـلى الدعـارة إلا إذا قضينـا عـلى الفقـر، ولـن نتخلـص أبـدًا مـن الفقـر والفسـاد قبـل أن نقيـم نظامًـا عـادلًا يعطـي كل إنسـان حقَّـه ويعاقـب المـسيء مهـما يكـن موقعـه ونفـوذه.

وليـس للأوروبيـين مسـاجد ولا يخافـون مـن عـذاب القـبر والثعبـان الأقـرع، ولكنهـم يخافـون العدالـة ولديهـم نظـام عادل يؤمـن بالجـدارة وليـس بالـولاء، فلـمَّا اسـتعمروا السـودان نقلـوا الخدمـة المدنيـة نفسـها مـن إنجلـترا إلى السـودان، لذلـك كان كل عمـل متقـن وجيـد ومتـين

لذلـك طبيعـة الغربيـين الأخلاقيـة ليسـت أفضـل مـن طبيعتنـا نحـن السـودانيين، فـلا توجـد طبيعـة أخلاقيـة ثابتـة للشـعوب، والأخـلاق ليسـت قيمـة مطلقـة وإنـما ظاهـرة اجتماعيـة. وإن المواعـظ والنصائـح لـن تـؤدي إلى انتشـار

الأخـلاق الحميـدة. وإن النـاس لا يتصرفـون أخلاقيًّـا بمعـزل عــن الســياق الاجتماعــي والســياسي الــذي يعيشــون فيــه. الحقيقــة أن النظــام القائــم في أي مجتمــع يخــرج مــن النــاس أفضــل أو أســوأ أخلاقهــم.

لــو أننــا وضعنــا الغربيــين في الظــروف التــي نعيــش فيهــا كســودانيين، فإنهــم ســيتصرفون حتمًا مثلــما نتــصرف الآن مــن فــوضى وفســاد. والســودانيون الذيــن حلُّــوا مكانهــم في أوروبــا ســيتعاملون كالأوروبيــين لأنــه يحكمهــم نظــام سياسي عــادل.

إذًا الإصــلاح الســياسي هــو الخطــوة الأولى للتقــدم، وإنــه الطريــق لإصــلاح الأخــلاق، وبعــد الثــورة ســلكنا طريــق إعــادة دولــة القانــون التــي ستعيد لنــا الأخــلاق وستقضي عــلى الفقــر وعــلى الفســاد إلى الأبــد.

وكانــت البيــوت في السرايــا قليلــة العــدد، ولا فــرق بــين المديــر والخفــير.. والنــاس يقضــون أمــور حياتهــم مــع بعــض، ويتداخلــون في الأفــراح والأتــراح، والتعــارف أصبحــت لــه امتــدادات لــلأسر الكبــيرة خــارج السرايــا.

والنســاء يتداخلــن مــع بعضهــن بعضًــا ويرســمن الحنــاء الســودانية بالأشــكال والألــوان، وكانــت والــدة عــماد الحاجــة فاطمــة تمتهــن هــذه المهنــة بحرفيــة وتعــود عليهــا بفائــدة كبــيرة.

وكانــت تســتعين بهــا زوجــة المفتــش ونســاء السرايــا في بعــض أمــور النســاء الخاصــة.. كتجهيــز الحــلاوة (مــادة شــمعية تُــزال بها كل القشــور والشــعر مــن جســم الســيدة وتجعلهــا أكثــر نضــارة).

وكانت الحاجة فاطمة – أم عماد – أيضًا تصنع المأكولات في يوم الصرف للمزارعين، وهو يوم يأتي فيه المزارعون في نهاية كل موسم بعد أن حصدوا القطن وبعد حصاد القمح لصرف مستحقاتهم المالية، ويعرف بالعائد أو لصرف مقدم الزراعة، أو كما يسمونه «السلفية»، والتي تخصم بعد الإنتاج، وفي ذلك اليوم يأتي التجار وأصحاب الفواكه والخضراوات وحتى أصحاب الأقمشة والملابس والإلكترونيات وكل من له ديون على مزارع يأتي في ذلك اليوم، وكان هنالك رجل كبير في العمر حين عرفته، لقبه «كرارة»، كان تاجرًا يبيع بالآجل، لا يوجد شخص أو بيت في قرى التفتيش أو من هم حول مكتب طيبة لم يستدن منه، ففي يوم الصرف يأتي بدفتره ويجلس أمام شباك الصراف، فله ذاكرة قوية جدًّا بالرغم من كبر سنه، فالذي يريد أن يفلت منه لا يستطيع، فكان يبيع الإلكترونيات من مراوح وخلاطات وتلفزيونات وثلاجات، وأيضًا يستدين من يريد، وكان يأخذ أرباحًا.. وإن لم يصطادك في المكتب يرصدك في منزلك، وهو مسلح بكل التفاصيل عن المبلغ الذي صُرِف لك، ونادرًا من يستطيع الإفلات منه.

هذا الصرف يستمر إلى أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام، لا سيَّما لو كانت المبالغ كبيرة.. وفي هذه الأيام كانت تُباع اللحوم بكل أنواعها؛ العجالي والضأن والإبل، وفي هذه الأيام تنشط الأكلات الشعبية، مثل: «أم فتفت»، وكبدة الإبل النيئة بالشطة الخضراء، و«الدكوة» و«الآتي»، ويكون

يـوم بهجـة ومتعـة في بيـوت العرقـي والمريسـة (مشروب مسـكر مـن الـذرة بعـد تخمـيره، وهـي أنـواع منهـا البقنيـة ومنهـا الدقـة والدبوبـة) وعـادة تُصنَـع في بيـوت عـمال الزراعـة الموسـميين، وللدلالـة عـلى وجـود مريسـة في هـذا البيـت يُرفَـع علـم أو رايـة فـوق القطيـة أو الراكوبـة، ولا تعتمـد عـلى رائحتهـا النفـاذة المنبعثـة مـن هـذا البيـت؛ قـد يكـون حُجِـز كامـل المنتـج إلى شـخص واحـد أو مجموعـة، ويزيـد الإنتـاج بزيـادة الزبائـن.

وكذلـك يبـاع الخبـز بأشـكاله والحلويـات بأنواعهـا، وأم عـماد مـن ضمـن الذيـن يسـتفيدون مـن تلـك الأيـام في صناعـة الحلويـات وبعـض الأكلات الشـعبية والشـاي والقهـوة، وكنـا نحـن الأطفـال سـعداء بهـذه الأيـام ولا يضاهيهـا في الجـمال إلا أيـام العيـد.

وكان جميـع السـكان في هـذه السرايـا بالرغـم مـن أنهـم مـن سـحنات متباينـة ومناطـق جغرافيـة مختلفـة؛ فيهـم مـن الغـرب، وفيهـم مـن الشـمالية، وفيهـم مـن الـشرق وهكـذا، فـإن بينهـم تـذوب العنصريـة والفـوارق الاجتماعيـة، فـكان أكـبر هـذه البيـوت هـو بيـت المفتـش الزراعـي.

بعـد أن وصـل عـماد عمـره إلى سـبع سـنوات دخـل المدرسـة الابتدائيـة في عـام 1979 في قريـة كركـوج، فهـي أقـرب مدرسـة لسـكان السرايـا، وكان مـن ضمـن أبنـاء وبنـات السرايـا يذهبـون ويجيئـون في مجموعـات إلى المـدارس الابتدائيـة فيهـا أولاد وبنـات، أمـا المرحلـة المتوسـطة والثانويـة كانـت خـارج القريـة، مـا عـدا أبنـاء المفتـش، فكانـوا يذهبـون إلى

المدارس بسيارتهم وأحيانا يسمحون للبقية بالركوب معهم في السيارات نفسها إذا ما وجدوهم في الطريق.

ولعماد أخوان وأخت واحدة، وكان الناس بطبيعة حالهم في مثل هذه المكاتب وهذه الوظائف يعتمدون على رواتبهم الهزيلة؛ يسددون منها المصاريف اليومية ويشترون الملابس وغيرها لأبنائهم وبناتهم/ وبالكاد تكفيهم إلى آخر الشهر دون الحاجة إلى استدانة، فكان والد عماد خفير الترعة رجلًا طيبًا وتقيًّا، وكان من حفظة كتاب الله في خلاوي أزرق طيبة، وكان الناس سابقًا في جيل أبي عماد يعتمدون في تعليمهم على الخلاوي، لذلك معظم هذا الجيل من حفظة كتاب الله، حتى من يداومون على شُرب «المريسة»، فيهم من تلقى تعليمه الأوَّلي بالخلوة وتحفيظ القران، ولكن عدم المداومة على تلاوته تتسبب في نسيانه، وكان متدينًا يخاف الله بصدق، فليس كتدين هؤلاء الغشاشين هذه الأيام، وكان دائمًا ما يحثُّ أبناءه على الصلاة، وكان يأتي بهم إلى القرية في كل جمعة لأداء الصلاة، ثم يزور أصدقاءه المزارعين يمزح مع هذا ويضحك مع ذاك، ويجودون عليه بما تيسر من ذرة أو قمح أو بصل، ثم يذهب إلى الدكان الذي له فيه دفتر للاستدانة، وكان يدفع ما تيسر له في كل آخر شهر.

واستمر عماد في هذه المدرسة الابتدائية، وهي ست سنوات، ثم يتوجه بعدها بعد اجتياز الامتحانات إلى المرحلة المتوسطة ثلاث سنوات، قبل أن يتغير النظام التعليمي في فترة حكومة الإنقاذ.

تخرج عماد في الابتدائي بشق الأنفس ومعاناة مع الفقر والعوز، وشقيقه الأكبر يوسف ترك الدراسة لعدم رغبته في المدرسة بالرغم من ذكائه، وثانيًا ليساعد والده في مصروف البيت، وكان يعمل في الحواشات عامل زراعة أو عامل بناء في القرية، وهذا العمل عادة يكون متقطعًا.. وكان عماد يتملق ويتحين الفرص مع أبناء المفتش حتى يحصل على جزء من ساندويتشات فطورهم، وكان هو الحامي لهم من أبناء المدرسة.

وعماد يتمتع بذكاء فطري؛ كان من المبرزين في الدراسة، وهذا ما جعله محبوبًا من سكان السرايا لا سيَّما المفتش، ومن مدرسي المدرسة، ويتمتع ببنية قوية وطول قامة بالرغم من صغر سنه، فكان التلاميذ عادة يتجمعون حول أبناء المفتش، فكان شكلهم ولبسهم يختلف عن بقية التلاميذ؛ يلبسون لبسًا نظيفًا ومرتبًا ورائحتهم حلوة، عكس أبناء القرية الذين بعضهم كريهو الرائحة ولهم رائحة غير محببة، ومن ضمن الأسباب، غير عدم المداومة على الحمام، كانوا يأتون بالأغنام إلى «السرحة» ويدخلون الفصول مباشرة دون الاهتمام بالنظافة، لذلك كانت رائحة البهائم تكون عالقة في ملابسهم وأجسامهم، ورائحتهم غير مستساغة أو كريهة، والسرحة هي مكان تجمع أغنام القرية، وعادة كانت بالقرب من ميدان المدرسة، ويكون الراعي في انتظارهم، وهو الشخص المسؤول عن الأغنام والأبقار؛ يذهب بها في الصباح إلى الحواشات والترعة،

وهي مكان للرعي، ويرعى بها حتى الساعة الرابعة عصرًا (مساءً) ثم يأتي بها إلى القرية.

في شيء طريف جدًّا: «البهائم» من الصباح - لحظة ذهابها إلى الراعي - تحتاج إلى من يُقدِّمها إلى الراعي، بمعنى من يقودها أمامه إلى مكان تجمع البهائم، لكن في عودتها من السرحة أو من الرعي، وبمجرد دخولها أطراف القرية بعد أن سرحت وشبعت، لا تحتاج إلى من يدلها على طريق مكانها، فتأتي مسرعة كل شاة أو نعجة أو بقرة إلى بيتها، وهي في عودتها لا تحتاج إلى أن يستقبلها أحد من أفراد المنزل، بالرغم من كثرة البيوت وأزقتها، فلم يسمع أهل القرية عن غنمة واحدة تاهت عن بيتها، أو بقرة ضلت الطريق، وتطلق أصوات المناداة لأبنائها الصغار، وفي تلك اللحظة جميع سكان القرية عندما يسمعون أصوات البهائم ويعرفون بها مواعيد الغنم: (إن الغنم جات من السرحة).. والذي كانت لديه شغلة يوقفها لكي يُقيِّد الغنم ويضعَها في مكانها ويُسمى «الزريبة»، والزريبة هي المكان الذي تُودَع فيه الحيوانات ولا تحتاج إلى أن تقيد بالحبال، لا سيَّما لو كانت «مراحًا»، والمراح هو مجموعة من الحيوانات غنم أو بقر أو ضأن، وتكون في حالة هدوء تام لا تتحرك، ويصاحب هدوءها الحركة، إلا في حال الجوع، أما لو كانت ذات أعداد قليلة تحتاج إلى أن تقيد بالحبال داخل الزريبة.

وكان أهل القرية يعتمدون على ألبانها، ولا يُسمَح لصغارها أن ترضع من أمهاتها قبل أن تُحلَب، وكانت

هـذه مهمـة الأبنـاء أو البنـات الصغـار في البيـت بـأن يمنعـوا الأغنـام الصغـيرة أو العجـول مـن رضاعـة أمهاتهـا، وفي حـال (الغنـم رضعـن) قبـل أن تُحلَـب يُعاقَـب مـن أهمـل في مهمتـه عقابًـا شـديدًا؛ لأنـه سـيحرم الأسرة بأكملهـا مـن أهـم وجبـة في العشـاء؛ طـرق القمـح (خبـز مـن القمـح يصنـع في صـاج) أو عصيـدة القمـح أو الدخـن باللبـن، وذلـك قبـل النـوم، وفي الصبـاح شـاي باللبـن باللقيـمات أو «الزلابيـا» قبـل الذهـاب إلى العمـل أو المدرسـة.

وكان طـلاب المدرسـة يتحرشـون بأبنـاء المفتـش، خاصـة مـن طـلاب الصفـين الخامـس والسـادس، فـكان غالبيتهـم في مرحلـة مراهقـة، متوسـط الأعـمار بـين أربعـة عـشر وخمسـة عـشر سـنة، وكان عـماد حائـط الصـد لهـم مـن أي تحرشـات، وأحيانـا يشـكون لـه مـن يؤذيهـم، وبمقابـل هـذه الحمايـة كان يحظـى بفطـور أو مبلـغ مـن المـال يشـتري بـه حلويـات أو فـول سـوداني أو داندرمـة (عصـير مجمـد) مـن الحاجَّـات (نسـاء كبـار في السـن) التـي تُسـوق خـارج سـور المدرسـة لتلاميـذ المدرسـة وللـمارة أيضًـا، ثـم بعـد ذلـك يكـون مـن المقربـين لأبنـاء المفتـش، وهـو الـذي ينجدهـم وينقذهـم عندمـا يتكالـب عليهـم وحـوش المدرسـة. واسـتمر بهـذا الحـال حتـى تخـرَّج عـماد في الابتدائيـة، وكان أهـل السرايـا عامـة يوصـون عـماد عـلى أبنائهـم بـما فيهـم المفتـش الزراعـي.

كان عـماد يـمارس بطولتـه وسـاديته عـلى أبنـاء القريـة، مِمَّـن هـم في عمـره أو مـن يكبرونـه قليـلًا في العمـر في كل شيء، فكان

في موسم صيد العصافير ويسمى «شريك الطير»، وهو موسم العصافير، ويكون بعد حصاد القمح بقليل، يُسمى عند أهل الجزيرة «دق القمح»، تأتي العصافير في حواشات القمح لتلتقط ما تبقى ممَّا تركته آليات «دقاقات القمح»، وعماد بحكم سكنه بالقرب من الحواشات أو بالقرب من أماكن تجمع العصافير يستأجر عماد «المتلة» وهي فرع من الشجر الشوكي، ومعروفة بشجر السنط، تُغرس في الأرض لكي تأتي العصافير إليه وتتخيله شجرة، وتُنثَر البذور تحته ويُنصَب الشرك تحته، وهذا الشرك قاعدته من الصفيح ومن فوقه خيط، ويربط على الخيط شعر من ذيل الحصان لقوته ودقته، ثم يُغطى كل أجزاء الشرك بالتراب، ما عدا شعر الحصان يكون بالأعلى ولا يستطيع العصفور رؤيته، ويُصمَّم الشعر بصورة بمجرد أن يحاول العصفور التقاط حبة القمح ويطير يمسك الشعر الموجود على الشرك به من عنقه أو من رجله ولا يستطيع الإفلات، والبقية من العصافير التي فلتت من الشرك تطير، وتبقى من كتب لها عدم النجاة، وعندها يأتي الأولاد المراقبين بحذر شديد، وتُمنع الحركة في تلك اللحظة، فيأتون جريًا للوصول إلى الأشراك الموجودة كل يذهب إلى شركه، ثم يطلق العصافير التي استطاع شركه القبض عليها، ويجري الذبح في الحال والنظافة في مياه الترعة، ووضع العصافير المذبوحة في كيس للاحتفاظ بها حتى نهاية الرحلة، ثم يعيدون تجهيز الشرك من جديد، وهذه العملية تتكرر أكثر من مرة حتى المغرب.

وكان عماد بحكم بنيته القوية وصوته الجهور، واستغلال قربه من الحواشات، يؤسس أكثر من «متلة»، ولا يسمح لأحد أن يؤسس «متلة» في منطقته، وكان الإيجار بالنسبة، فإذا اصطاد الشخص عشرة من العصافير تأتي لعماد عصفورين وأنت صاغر، وهذا موضوع لا يقبل أي نقاش أو تنازل من قبل عماد، أو ستطرد من هذه المتلة. وعماد ليس لديه شرك، بل يعيش على الإيجار ويأخذ أكثر من الجميع، وفي أحيان كثيرة يبيع ما فاض عنه إلى من يُشرِّكون، ولا أحد يستطيع أن يكذب عليه.

وكان في موسم زراعة البصل، أو يسمونه في بعض المناطق شتل البصل، تأتي مجموعة من الأطفال لهذه الزراعة في حواشة معينة، بعد أن يعلن صاحبها في القرية أن اليوم في زراعة البصل وهو غرس بصلة واحدة في الحفرة، وكانت الزراعة في أحواض، وهي أرض تُسطَّح أو في سراب من غير أن تُسطَّح، وكل واحد يبدأ يزرع، وصاحب الحواشة أو المزرعة في نهاية اليوم يحسب كم سرابة زُرِعت، ويحسِب جملة ما زُرِع ويعطي المبلغ لأكبر شخص في الزارعين، وهو من يحاسب كل شخص بعدد السرابات التي زرعها، وكان عماد بحكم بنيته يتسلم هذا المبلغ ويبدأ الحساب لكل واحد بعدد السرابات التي زُرعت، لكنَّ عماد دائمًا هو الذي يزيد عدد السرابات التي زرعها بالكذب، ويطالب كل الزارعين أن يخصم منهم سرابة أو اثنتين من حساباتهم لكي يغطي العجز، وكان يلوم الآخرين بحجة أن هناك

مجموعة من الحرامية زادت العدد، ولكن في الحقيقة ليس غيره من يقوم بهذا العمل الدنيء.

ومن ممارسات عماد الانتهازية التي مارسها في طفولته أيضًا: في المشروع قبل الحصاد، وعندما يكون الزرع في بداياته، كان المزارعون يخافون على زرعهم من المواشي أبقار أو أغنام أو حمير، وحتى من الإنسان، وكانت الحواشات القريبة من القرية يُستأجَر حارس لها، أو يحرسها المزارع بنفسه، لذلك قررت إدارة المشروع فرض عقوبة على تلك الحيوانات التي تقتحم الحواشات وتأكل منها وتتلفها، وذلك بالغرامة المالية، لكي يتعظ أصحابها بهذه العقوبة إن كانوا متعمدين أو إن كانوا مهملين، ولكن الغرامة عادة تُدفَع بعد أخذ الحيوانات جميعها إلى ما يعرف بالزريبة، وفي هذه الزريبة تُحبَس الحيوانات حتى يأتي أصحابها بعد أن تغيب عن الحضور في الموعد المحدد إلى البيت، وأول مكان يتبادر إلى ذهنهم واحتمال وجودها فيه هو الزريبة، فيذهبون إلى هناك ويبدأ كل إنسان بالبحث وسط الأغنام عن غنمه أو وسط الأبقار عن بقرته، وكلما جلس الحيوان مدة زادت الغرامة؛ لأن من حبس هذه البهائم يُطعمها ويُشرف عليها حتى يأتي صاحبها، وتختلف في قيمة الغرامة حسب النوعية، مثلًا: الأبقار كانت ذات قيمة أكبر والأغنام أقل، وكان المسؤول عن هذه الزريبة واسمه (أبكر سابو) يدفع مبلغًا من المال للذي يأتي بالحيوانات لأنه تضرر منها، وهذا المبلغ يعتبر تعويضًا للضرر الذي أصاب زرعه،

بحيث عندما يأتي صاحب الحيوان يدفع ضعف ما دفعه مسؤول الزريبة لصاحب الزرع المتضرر. عماد كان يقوم بعملية انتهازية، وهي: تغيير مسار الأغنام من الأرض البور - الأرض الخالية من الزرع، وكانت ترعى فيها على الحشائش القليلة - إلى مكان الزرع، ثم ينادي صاحب الحواشة المزارع المنهمك في زراعته بأن هناك (بهائم دخلت الحواشة) وسأرسلها إلى الزريبة. هنا المزارع يشكر عماد على خدمته ومساعدته له، يقود عماد جميع الحيوانات إلى صاحب الزريبة، أو المتعهد «أبكر سابو»، ويحسب له عدد الرؤوس ويعطيه مبلغًا محترمًا يأخذه عماد ويذهب إلى المنزل، وغدًا يبدأ في مشروع آخر، وهكذا كانت معظم حياته في الإجرام، وإن كان إجرامًا مهذبًا، فلا أحد يعلم به إلا أصدقاءه المقربين منه.

عماد في المرحلة المتوسطة
وانتفاضة أبريل 1985

ودخل عماد المدرسة المتوسطة في عام 1985 مع انتفاضة أبريل، التي كانت ضد حكم جعفر نميري الديكتاتوري، الذي حكم السودان منذ عام 1969، وانتفض عليه الشعب في أبريل 1985.. وانحاز الجيش بقيادة المشير سوار الذهب، الذي كان القائد العام لقوات الشعب المسلحة، إلى الشارع، وحدد مدة انتقالية مدتها سنة واحدة وتسليم السلطة للشعب، وكان يوجد مجلس وزراء مدني برئاسة دكتور الجزولي دفع الله، وكان نقيب الأطباء، كأحد النقابات القوية التي قادت العصيان المدني الذي أطاح بالنميري، وبالفعل بعد سنة تنازل سوار الدهب وسلم السلطة بعد انتخابات حرة ديمقراطية، حصل فيها حزب الأمة على الأغلبية البرلمانية، ثم الاتحادي الديمقراطي، ثم الجبهة القومية الإسلامية، وكانت المدة الانتقالية عليها مآخذ كثيرة، من أهمها أنها كرست ومهدت لحكم الجبهة الإسلامية، فكانت موضع انتقاد خاصة لسوار الذهب – الذي شغل منصب رئيس منظمة الدعوة الإسلامية بعد تقاعده عن الجيش – وتسليم السلطة للشعب، ولكنه كان

موضع إعجاب للعالم خاصة للعرب، ما جعلنا نسأل هذا السؤال: ما سبب إعجاب العرب بالمشير سوار الذهب، ولم يجمع على إعجابه الشعب السوداني؟ للإجابة عن سؤالنا إليك هذه الواقعة:

في أثناء زيارة الرئيس الفرنسي ماكرون معرضًا زراعيًّا في باريس، اجتمع عدد من المزارعين الفرنسيين حول الرئيس الفرنسي، وعبروا عن غضبهم بسبب منع مبيد حشري، نظرًا إلى ضرره على الإنسان، وكان التعبير بكثير من عبارات الاستهجان في وجه الرئيس الذي بدا عليه الغضب، وصاح في وجه أحد المزارعين المعترضين وقال وهو غاضب: أنا الرئيس المسؤول، سيقول لي الناس يوما إنك كنت على دراية باستعمال هذا المبيد ولم تحرك ساكنًا، في حين أنت هنا تطلق الصفارات وتتحدث وأنت تنظر إلى العين بالعين.

فردَّ عليه المزارع: أيها الرئيس تكلم معي بأدب نحن في بلدنا.

وانتشر هذا الفيلم في كثير من مواقع التواصل، وكان قصد المزارع بهذه الجملة أنه مواطن فرنسي ومن حقه أن يعبِّر عن غضبه في وجه رئيس الجمهورية. طبعًا لو حدث ذلك في بلد نظامه استبدادي ستقبض الشرطة على هذا المزارع فورًا وسيتعرض لتعذيب بشع حتى يعترف أنه عميل لمخابرات أجنبية، ثم سيحال إلى المحاكمة تشمل إهانة رئيس الجمهورية ومحاولة إسقاط الدولة وقلب نظام

الحكم بالإضافة إلى زعزعة الاستقرار للدولة

وتابعت بعض التعليقات على هذا الفيلم خاصة لمواطني الدول العربية: والغالبية أعجبوا بهذا المزارع كما أعجبوا بسوار الذهب تمامًا، وأجمعوا على أن المزارع الفرنسي تصرف بهذه الشجاعة لأنه يعلم أن ماكرون رئيس ديمقراطي منتخب لن يعتقله ولن يؤذيه، لكن لا أحد سأل هذا السؤال: لمن يعود فضل الديمقراطية؟ فضل الديمقراطية يعود للمواطن وليس لرئيس الجمهورية، والأوروبيون عانوا الكثير مع الأنظمة الاستبدادية السابقة وضحُّوا وماتوا ودفعوا الثمن من أجل الديمقراطية التي يستمتعون بها اليوم، ما فعله المزارع الفرنسي ليس عملًا استثنائيًّا، فالإنسان في الدولة الديمقراطية يستطيع أن يقاضي الدولة، ويعتبر الرئيس موظف دولة عاديًّا وليس أبًا للشعب، كما لا يستطيع الرئيس أن يخرق الدستور ولا يستطيع أن يفصِّل القانون بمزاجه.

لذلك ما قام به سوار الذهب ليس عملًا استثنائيًّا ولا عملًا بطوليًّا، فهو عمل طبيعي في بلد كانت تحكمه الديمقراطية (قبل انتكاسة الإنقاذ) فكان موظفًا في الدولة يلتزم بالقانون الذي وضعته له انتفاضة أبريل عام 1985، وهو تسليم السلطة بعد مدة انتقالية مدتها سنة واحدة، وكانت هناك نقابات فاعلة واتحادات طلاب موجودة، وكان اتحاد طلاب جامعة الخرطوم وحده قادرًا على إسقاط النظام، ونقابة الأطباء، ونقابة المحامين، ونقابة الصحفيين،

ونقابة عمال السودان، ونقابة المعلمين كانت كلها فاعلة ونشطة وجاهزة للعصيان الذي أتى بسوار الذهب، وأزاح نظام نميري الديكتاتوري المستبد، والذي جثم على صدور الناس أكثر من خمسة عشر عامًا بالحديد والنار.. ففي حال لم يوف الجيش بوعده بتسليم السلطة للشعب بعد سنة واحدة، فإن الشعب كان قادرًا على انتزاعها، والمجلس العسكري يدرك هذه الحقيقة، لذلك المجلس العسكري بقيادة سوار الذهب لم يغامر.. إذا الفضل في تسليم السلطة يرجع إلى الشعب وليس لسوار الذهب؛ لأن الشعب هو من أتى به إلى السلطة. وهذه هي مزية الديمقراطية، فالقانون هو الذي يحكم بين الدولة والمواطن.

النموذج الذي يستحق التقدير والإعجاب هو الرئيس الجنوب الأفريقي مانديلا، الذي رفض أن يرشح نفسه مدة رئاسية مرة أخرى، حتى يعطي الفرصة لأجيال جديدة تلعب دورها السياسي. وبحكم التاريخ يستطيع مانديلا أن يبقى حاكمًا لجنوب أفريقيا طوال حياته؛ لأنه دفع شباب عمره من أجل قضايا وطنه وشعبه، وقضى في السجن ما يقرب من ثلاثين عامًا، وذاق كل ألوان العذاب البدني والإنساني والنفسي، وكان وفيًّا لقضاياه. ولو أن مانديلا رغب أن يبقى طوال حياته في الحكم فلن يعارضه أحد، ولن يكون ذلك بانقلاب عسكري أو دبابة تجتاح القصر الجمهوري، وذلك سيكون بحكم المشاعر العميقة التي ربطت بين الرجل وشعبه.

إن رصيد مانديلا يعطيه الحق في أن يجلس على كرسي السلطة عشرات السنين، فهو رصيد مناضل دفع لوطنه ثمنًا غاليًا.. وعلى الرغم من ذلك أعلن الرجل أنه لن يبقى في السلطة غير مدة رئاسية واحدة.

النموذج الآخر: في عام 1968 ترك الرئيس الفرنسي ديجول قصر الإليزيه أمام مظاهرات الطلبة، وكان الرجل بحكم تاريخه يستطيع أن يبقى في الحكم طوال حياته بحكم مكانته عند الفرنسيين، ولقد سميت أكبر المعالم في الدولة باسمه وحتى الآن لم يغيروها تعظيمًا لهذا الرجل، كمطار ديجول ومحطة المترو الكبرى باسمه، ويعتبر الأب الروحي لفرنسا وصانع استقلالها وتاريخها الحديث، لكنه فضل أن يرحل حتى لو كان الرافضون له شبابًا صغيرًا في عمر الزهور.

لكنَّ عالمنا العربي يعتبر سوار الذهب نموذجًا لم يأتِ التاريخ بمثله، وسيذكره التاريخ العربي بأنه نموذج مشرف لحاكم ترك المنصب راضيًا وقانعًا، ولكن هؤلاء المغرمون به لم يتحدثوا عن أن الديمقراطية هي التي منعته أن يواصل في المنصب، وهؤلاء المعجبون كل الذي يدور في أذهانهم أن رئيسًا ترك المنصب طائعًا مختارًا، وفي دول العالم الثالث هواية عجيبة هي الاستمرار في المنصب، فالرئيس يستمر في رئاسته عشرات السنين تحت أي ظروف، ويجلس الوزير على كرسيه عشرين سنة وربما أكثر، ويجلس المدير في مكتبه نصف قرن، وتدور عجلة الأحداث والزمن والكل

جالس على أنفاس الكل.. مثل لاعب الكرة الذي يصرُّ على اللعب، على الرغم من أن الفريق مهزوم، والجماهير تلقي عليه الحجارة وعليه أن يترك الملاعب فورا.

ودخل عماد المرحلة المتوسطة بتفوق، فكان يتمتع بذكاء فطري ممَّا أهَّله إلى اجتياز المرحلة الابتدائية بكل براعة، وحظي بمدرسة داخلية في قرية المهلة بجنوب الجزيرة، وكانت المدارس المتوسطة قليلة العدد على الرغم من جودة التعليم، وكان لا يُقبل فيها بالقسم الداخلي إلا من كان مجموعه ينافس البقية.

وفرح والده فرح شديدًا؛ لأن الصرف سيكون على عاتق الحكومة، وفي الداخلية لا يحتاج إلى كثير من المصاريف، فالدولة – أي وزارة التربية والتعليم – هي التي تقوم بإعاشة الطلاب في هذه المدارس، وكانت الحكومة توفر لهم الأكل بأنواعه وبتشكيلته الصحية من ألبان ولحوم وبلح وأسماك بجدول منتظم، وحتى الأحبار والكراسات تُصرَف لطلاب المدرسة، لذلك سيوفر عماد جهدًا مقدرًا لأبيه يتوجه به إلى بقية إخوانه. وفي المرحلة المتوسطة تشكلت شخصية عماد المزدوجة الانتهازية وفيها شيء من الحقد على المجتمع.

كون عماد أصدقاء من داخل القرية التي بها المدرسة والداخلية، وكانوا يزورونه كثيرًا ويقدمون له الهدايا ويعزمونه في داخل القرية في منازلهم، هذا بعد أن تعرفوا قوة شخصيته وعدم استطاعتهم تجاوزه للعبور إلى تحقيق مآربهم، وكانوا يستجدونه لصداقته، ولقد أشاد بتهذيبه

الكبار في القرية، ولقد قدمه لهم صديقه صلاح، وهو صورة من أخلاق عماد الانتهازية، وكان على الرغم من سوء أخلاقه ينتمي إلى جماعة الحديث والقرآن، وكان من بينهم من هم في تنظيم الجبهة الإسلامية، والذي أصبح له فيما بعد واجهة سياسية (حزب المؤتمر الوطني) فكانت ذات نشاط سياسي ضخم. لقد نشطت واستوعبت أعدادًا ضخمة جدًّا، وكان لا يهم السلوك، بل الظاهر من تصرف الإنسان، وكانوا يعتمدون على الكم وليس في الكيف، وكانت تريد أكبر عدد حتى تفوز في الانتخابات، لذلك حققت فوزًا مقدرًا في الانتخابات التي أجريت في مدة الديمقراطية الثالثة، وإن كانت لم تحظ بأي مقعد في هذه الدوائر، لكنها استطاعت أن تتوغل في داخل الشباب، وكانت تمتلك المال والإعلام، وهذا ما ساعدها في تقويض المدة الديمقراطية.

في تلك المدة كان الناس يدَّعون انتمائهم إلى الجبهة القومية الإسلامية من أجل الحصول على وظيفة في بنك إسلامي، خاصة بنك فيصل، ومنها ظهر ما يعرف بالتدين الشكلي أو الزائف حتى يومنا هذا، وذلك من أجل أن يستطيع الشخص الممثل أن يجد فرصة للحياة أو وظيفة، وبدأ الناس في صناعة ما يسمى بزبيبة الصلاة على الجباه، حتى يتعرَّفك من هم في الدوائر الحكومية وتقضي غرضك وأنك من أهل النظام، وهذه من الموروثات التي من الصعب التخلُّص منها وأذكر على سبيل المثال:

صاحب سوبر ماركت كبير في حيِّنا بأم درمان معروف بتدينه البالغ، وكان مثالًا للتدين الزائف، هذا الرجل حجَّ إلى بيت الله أكثر من مرة، وأدى العمرة مرات كثيرة، ويحث أبناءه في السوبر ماركت دائمًا على الصلاة، ويؤم الناس أمام السوبر ماركت في مسجد صغير أو زاوية، وكلما يجد فرصة يتحدث مع الزبائن عن الدين وسماحته، ولديه سماعات لتشغيل إذاعة القرآن، ويساعد كثيرًا من الأسر ويقترح على المقتدرين تسديد الديون عنهم.

المشكلة في أن هذا التدين لا يمتد أبدًا إلى عمله في السوبر ماركت كحال الكثيرين من الناس، المقاول والمدرس والطبيب وأي شخص يدعي أنه متدين، ولكن يا للأسف لم يمتد إلى عمله، فمثلًا صاحب هذا السوبر ماركت كان يفرض أسعارا مُبالغًا فيها، على الرغم من أنه متدين ويؤم الناس في الصلاة، لكن كان الناس يفضلون أن يشتروا من الأقباط بدلًا منه؛ لأنهم صادقون أكثر منه، وكثيرا ما يرشو موظفي المحلية لتجاوز أي مخالفة.

التناقض هنا في حرص الحاج على أداء فروض الدين على أكمل وجه، وتقديمه النصيحة لشابات الحي بالحجاب، ومساعدة المساكين وتقديم التبرعات، وبين تلاعبه في الأسعار وغشه في بعض الأصناف ممكن نقول إنه منافق غير تقليدي؛ لأنه لا يحس بأنه متناقض في تصرفاته، وزيادته للأسعار لا تمس شعرة من إحساسه بالتقوى. أرباح الحاج تأتي من هذا الغش والمغالاة في الأسعار، وعندما يستقطع

جـزءًا قليـلًا مـن هـذه الأربـاح، ويسـاعد بهـا أسرة في قريتـه أو في الحـي، أو يتـبرع بفـرش للجامـع، يعتـبر نفسـه أنـه أدى واجبـه الدينـي وينـام قريـر العـين مرتـاح الضمـير. هـذا النـوع مـن التديـن الزائـف هـو سـبب فسـاد الإسـلاميين وسـبب تخلفنـا وسـبب دمارنـا، وانتـشر بصـورة كبـيرة جـدًّا.

والديـن الإسـلامي عظيـم وشـامل للحيـاة، ولكـن أمثـال الحـاج - وهـو يمثـل إسـلام غالبيـة التيـارات الإسـلامية الحاليـة - اسـتقطع منـه الجانـب المريـح غـير المكلـف واختزلـه في العبـادات فقـط؛ الحجـاب والصـلاة والحـج والعمـرة، فـترك مبـادئ الديـن الحقيقيـة التـي تدعـو إلى العـدل والأمانـة، لكـن بيعـه بالأمانـة سـيؤدي بـه إلى خسـارة في الأربـاح لا يتحملها.

هـذا الانفصـال بـين العقيـدة والسـلوك ظاهـرة مَرَضيَّـة انتـشرت مـع حكومـة الجبهـة الإسـلامية، وهنـاك الآلاف وربـما الملايـين يـرون الديـن بطريقـة الحـاج نفسـها، وأقـرب مثـال أعضـاء الحركـة الإسـلامية، أكثـر نـاس يـؤدون الشـعائر الدينية، ويتحدثـون في اجتماعاتهـم بقتـل الشـباب ونصب المشـانق، وأول حكومـة يشـيعها الفسـاد والسرقـة في العـالم باعترافهـم. وامتـدَّ هـذا المـرض إلى الشـارع؛ تجـد الطلبـة يغشـون في الامتحانـات، والمقاولـون يغشـون في مـواد البنـاء، وانتـشر الفسـاد في الـبر والبحـر.. معظـم هـؤلاء مسـلمون ومسـلمات يقتـصرون الديـن عـلى المظهـر والعبـادة دون السـلوك والمعامـلات، وعندمـا يرتكبـون هـذه الجرائـم لا تمـس إحساسـهم بالتقـوى.

وستكون المعركة الحقيقية في كيفية تحرير الدين من هذه الخزعبلات والنفاق وأشكاله الكاذبة التي يمثلها أعضاء الجبهة الإسلامية، وبين مبادئ الدين الحقيقية التي جاء من أجلها، وهي: الحق والحرية والعدالة والمساواة، والتي يمثلها شباب الثورة، ومات من أجلها الشهداء، ويبدأ تدريسها للتلاميذ من قبل مرحلة الأساس، إنها المعركة الحقيقية ننتصر فيها أو نموت.

وبدأ هؤلاء المتدينون في القرية يسألون عن عماد، وكانت تبدأ الجماعة في بناء وتربية العضو الجديد وفق آلياتها، وتعرف ببناء الذات، وذلك من خلال الالتزام بالمعايير والأسس كالتي وضعها حسن البنا مع شرح وافٍ للأصول العشرين، وهي مجموعة قواعد تعرف بالرسائل العشرين، والحث على الطاعة والجهاد والتربية والثبات، وتنمية مهارة القيادة، وزرع الثقة بداخله، ويصبح في رتبة محب، ويمكن أن يشارك في لقاء يطلق عليه لقاء المحبين، وهو لقاء مفتوح ليست فيه صرامة أو انضباط، مع تخفيف جرعته من المحتوى التربوي، ولا يلام العضو المحب إذا تأخر عن تنفيذ أي تكليف، بل يقابل بالابتسامة والاستيعاب، وتشاركه الجماعة في هذا الوقت أفراحه وأحزانه، حتى يشعر بالعزة، وأنه أصبح واحدًا من أسرة كبيرة هي الجماعة. وهذا ما بدأت به الجماعة والتي واجهتها السياسية حزب المؤتمر الوطني مع عماد.

وجميع أصدقائه من طلبة القرية، وكانوا يسمونهم طلبة الخارجية، بمعنى من يسكنون خارج الداخلية، فكانوا في مرحلة المراهقة، فكان وجودهم خطرًا في هذه المرحلة، ومع تلاميذ يصغرونهم سنًّا، وكان عماد بقوة شخصيته وانتهازيته في آن واحد فرض نفسه على رئيس الداخلية وحاز ثقته، وأصبح عماد منذ السنة الأولى رئيسًا للعنبر الذي يسكن فيه، ولقد اختار العنبر (العنبر هو غرفة يسكن فيها مجموعة من الطلبة، وكانت الأسرَّة غالبًا عنأقريب من الحبال متلاصقة) الذي فيه طلاب من صغار السن وذوي وجوه جميلة أو مقبولة، وجميلي الشكل وميسوري الحال، وهذا بطبع انتهازيته واستغلاله، ولذلك حاول طلاب المدرسة من هم طلاب بالمدرسة، ولكنهم لا يسكنون في الداخلية، التقرب منه وصداقته، وبدأ عماد استغلال هؤلاء الصغار، فكان رئيسًا للعنبر، وبطبيعة المهمة يمنعهم من الحركة في وقت الراحة وكذلك الكلام، وكان ذلك في وقت الظهر بعد تناول وجبة الغداء، ثم بعد الساعة السادسة مساءً يذهبون إلى المذاكرة في المدرسة، وهي إجبارية، ومن يتغيب يُعاقب، وبعد العودة من المذاكرة بعد الساعة الثامنة تُتناول وجبة العشاء.

وكان عماد يدخل السفرة بحكم تقربه من رئيس الداخلية والتملق إليه، فكان يكلفه ببعض المهام من ضمنها توزيع زيت السمسم والجبن أو السردين أو الطحينة على الأطباق، والتي عادة ما تكون عدسًا أو فولًا، فهما

أساسيان، وبتوزيع الخبز أيضًا أو أي أضافات، وكان لا بُدَّ أن يستغل ذلك في كل يوم ويأخذ أكبر قدر من الأكل ويوزع بالزيادة إلى المقربين والأصدقاء. وكذلك يغري به من يمارس معهم «الشذوذ الجنسي».

وبعد تناول وجبة العشاء بعد الساعة الثامنة مساء يضرب جرس النوم، وكل من يتحرك يسجل اسمه ويقدمه لرئيس الداخلية، والذي بدوره يقدمه إلى الأستاذ، وهو ضابط الداخلية، ويُعاقب المخالف في طابور الصباح؛ إذ يحمله أربعة أشداء أقوياء ثم يُنفَّذ حكم الجلد عليه، وبموجب هذه المهمة التي استغلها أسوأ استغلال في التكسب بالمال، وبعض المواد الغذائية التي كان يأتي بها للتلاميذ ميسوري الحال.

وكان عماد لا يصرف من جيبه الخاوي مليمًا واحدًا، بالإضافة إلى التمر والسكر الذي كانت تصرفه المدرسة، كان يوزع على الطلاب في الأسبوع مرتين، فكان يسرقه بحيث يقلل من الكمية التي توزع، ويبيع الذي يدخره من الطلاب إلى الدكان الذي بقرب الداخلية ويسمى «كنتينًا»، ولا يستطيع أي طالب أن يتفوه بكلمة ضده مع رئيس الداخلية، ولكن الأخطر من ذلك استغلال عماد هذه المهمة وحرية الحركة في الظلام في ممارسة الشذوذ الجنسي مع هؤلاء الطلاب صغار السن، وكان عماد يتقرب بهم إلى أصدقائه، ومقابل ذلك كان يأخذ خدمات غير مباشرة، مثلًا: عزومة أو هدية، وكان المفعول به يُستخدم من غير

أن تطالــه أي فائــدة إلا أن يتعــذب بممارســة جنســية شــاذة لم يعرفهــا إلا في هــذه الداخليــة بســبب هــذا الحقــير عــماد، وإذا رفــض يُهــدَّد بأنــه ســيطاله العقــاب، ويُســجَّل اســمه يوميًّــا مــن ضمــن المهرجلــين ويُحــرَم مــن التمــر والســكر.

وكان عــماد قليــل الخــروج، وذلــك يطلــق عــادة في يــوم الخميــس لمــن يســافرون مــن الداخليــة إلى قراهــم، ويقضــون يومــي الخميــس والجمعــة ويأتــون الجمعــة بالمســاء، فــكان نــادر الخــروج لظروفــه الماديــة، وأيضًــا لنفــوذه داخــل القريــة والاســتمتاع فيهــا أكثــر مــن الخــروج، وعنــد عــودة مــن خرجوا إلى أهاليهــم يأتــون محمَّلــين بالمصاريــف وكذلــك الكعــك أو البســكويت، ومــن لم يكــن معــه هــذه الأشــياء يــأتي بالباســطة التــي تبــاع في حلــواني بالقــرب مــن مواصــلات مهلــة، وعــماد يكــون بانتظــار هــذه الخــيرات، وفي وقــت الإجــازة كان آخــر طالــب يغــادر الداخليــة، لأنــه كان يــسرق كل شيء ويكــون بحوزتــه مــا جُمِــع، مثــل: السرديــن والفــول والعــدس والســكر واللبــن البــودرة، وحتــى النمــلي الــذي عــلى شــبابيك العنابــر لم يتركــه، وكان يصنــع منــه قفصًــا للدجــاج والحــمام في منزلهــم بالسرايــا أو يبيعــه.

وعندمــا وصــل عــماد إلى الســنة الثانيــة أصبــح رئيــس قســم مــن الداخليــة، والقســم يتكــون مــن عــدة عنابــر، وفي الســنة الثانيــة بــدأ عــماد في تكويــن علاقــات مــع بعــض الشــخصيات الغريبــة غــير التــي عرفهــا في ســنة أولى، وكان يذهــب معهــم في اجتماعــات خارجيــة خاصــة الخميــس والجمعــة، وهــذا ســبب

آخر لعدم خروجه إلى زيارة أسرته، وكان ذا شخصية جاذبة وذكية، ويجيد الصلاة ويمثل التهذيب لكل من رآه أول مرة، فجُنِّد طبعًا بعد متابعته منذ السنة الأولى، فكانوا يمهدون لاستقطابه وعلى أن يكون عضوا نشطًا في جماعة الجبهة الإسلامية. إن الجماعة كانت تتغلغل بين قطاعات معينة داخل المجتمع السوداني، ساعية إلى استقطاب الأشبال والشباب، مستغلة في ذلك بعض الثغرات التي تسللت منها إلى عقول الشباب، ونجحت في إقناعهم بأفكارها ومعتقداتها.

إن الجبهة الإسلامية تعتبر امتدادًا لجماعة الإخوان المسلمين، وتمتلك منهجًا في تجنيد الأنصار والأعضاء يعتمد على فكرة أن كل فرد في الجماعة مكلف بعملية التجنيد تحت مسمى الدعوة، وهناك قسم في الجماعة يتولى الإشراف على ذلك يترأسه عضو بمكتب الجبهة، وهو أعلى سلطة تنفيذية في الجماعة، وكلما نجح أي عضو في جلب واستقطاب وتجنيد أعضاء جدد، زاد وضعه وقدره ومركزه داخل الجماعة.

ولذلك طُلب من عماد تجنيد من يستطيع في الداخلية بحكم موقعه ونفوذه، ولكي يستثمر هذه الفرصة كان يأخذ مبالغ مالية من هذه الجماعة، وذلك بحجة أن الطلاب لكي يُقنِعَهم بمنهج الجماعة لا بُدَّ من أن يقدم لهم هدايا ووجبات، أو حتى ساندويتشات من البقالات القريبة من الداخلية، وكان يجني مالًا محترمًا، وهذا أول كسب

لعماد من حزب الجبهة القومية الإسلامية، والتي أصبحت حزب المؤتمر الوطني الذي ينتمي إليه، وتخلى عماد عن الممارسات الجنسية الشاذة لانشغاله بجمع المال، فكان إمامًا يؤمهم في كثير من رحلاتهم، ولكن بمجرد وصوله إلى الداخلية بعد غياب الشمس يكون شخصًا آخر، وكان كثير الطلعات أو الخروج ولا أحد يحاسبه؛ لأنه رئيس قسم.

وفي السنة الثالثة أصبح عماد رئيس الداخلية، فكانت تتكون من قسمين، والقسم الواحد فيه ستة عنابر، وأهم مهمة أوكلت إلى رئيس الداخلية هي متابعة المتعهد في المواد الغذائية ومطابقتها للمواصفات والعدد. ودخل مع المتعهد في كثير من المشكلات، وكان يشتكي عماد إلى مدير المدرسة، وهذه الشكوى كانت تدعمه وتزيد من ثقة المدير تجاهه.. والمتعهد هو الشخص الذي اختير بعد تقديم العطاءات بتوريد المواد الغذائية والحليب واللحوم وكل حاجة تخص طلاب الداخلية مدة عام كامل، ويُدفَع التحصيل من وزارة التربية والتعليم بعد أن يجيزها عماد، وتُوقَّع من الأستاذ ضابط الداخلية، وكان دقيقًا جدًّا، وأصبح الطلبة يعيشون في نعيم وخدمات ووجبات خمس نجوم؛ لأنه أجبر المتعهد بتحسين الوجبات وتطابقها مع العقد، ولكنهم لا يدرون أن لعماد مآرب أخرى.

يوجد من الأجيال حين يقرأ هذا الكلام قد لا يصدق عن الإعاشة والخدمات الجليلة التي كانت تقدمها الدولة للتعليم ومجانية التعليم إذا ما قورن بالدمار الذي طال

هـذه المؤسسـة المهمـة مـن ضمـن قائمـة الدمـار الطويلـة التـي أصابـت الإنسـان السـوداني وأهـم مؤسسـاته، وهـذا مـا أدى إلى تخلـف ودمـار التعليـم ومخرجاتـه. إن الخدمـات التـي كانـت تقـدم للمدرسـة المتوسـطة إذا مـا قورنـت اليـوم بـما تقدمـه الدولـة للجامعـة لا تسـاوي شـيئًا، ولا تندهـش إذا لم تجـد أي جامعـة سـودانية في التصنيـف العالمـي للجامعـات، وكيـف كانـت جامعـة الخرطـوم وموقعهـا بـين جامعـات العـالم، وهـذا مـا يجعلنـا نتسـاءل عـن سـبب تخلـف الجامعـات في السـودان وتدهورهـا كل يـوم.

لأن مديـر الجامعـة لا يهمـه العلـم في قليـل أو كثـير، كل مـا يهمـه إرضـاء أجهـزة الأمـن وإثبـات الـولاء للرئيـس والنظـام. ولأن مديـر الجامعـة يُعـين بقـرار جمهـوري، أي إنـه بحكـم القانـون مـرؤوس مبـاشر لرئيـس الجمهوريـة المسـتبد الـذي لا علاقـة لـه بالعلـم ولا بالعلـماء، يعنـي أنـه لا يهمـه حقـوق الطالـب ولا البيئـة التعليميـة للطالـب، في حـين أن الجامعـات في الـدول الديمقراطيـة تحـرز تقدمًـا علميًّـا يـؤدي إلى نهـوض البلـد ويغـير تاريـخ الدولـة والمنطقـة بأكملهـا، وتتخلـف جامعاتنـا.

لـو أخذنـا نموذجـين لمديـري الجامعـات في العهـد البائـد.. مـا زلنـا نذكـر كيـف أرضى بروفيسـور كبـير مديـر جامعـة الخرطـوم الأجهـزة الأمنيـة، عندمـا كان مديـرًا لهـا سـمح للأمـن الشـعبي بالتنكيـل بالطلبـة والطالبـات، وأمـر بإغـلاق الداخليـات في أثنـاء الامتحانـات حتـى يمنـع الطـلاب مـن

مقاطعتها.. وكانت مطالبهم تحسين البيئة التعليمية، وأمر بشحن الطلاب في «دفارات» وإرغامهم على الدخول إلى قاعة الامتحانات، وكانت النتيجة حصوله على منصب أعلى، مكافأة له على تفانيه في خدمة النظام. وعُين وزيرًا للصحة، والذي استغل علاقات جامعة الخرطوم لتأسيس جامعته الخاصة، وتحويل المنح والمؤتمرات منها إلى جامعاته ومستشفياته.

بروفيسور مدير جامعة أخرى لكي يرضي الرئيس، ويضمن استمراريته في وظيفته، منح السيدة وداد بابكر شهادة الدكتوراه من جامعة كرري، والتي اختار لها عنوانًا قد لا تستطيع هي حتى قراءته (التخطيط الاستراتيجي) ولم يستشعر أدنى حرج في هذا الفعل، ولم يقف عند هذا، بل بدأ في كيل المديح والاحتفاء البالغ بقرينة البشير، ثم أجبر الأساتذة بالتصويت لمنح السيدة حرم البشير الدكتوراه.

ما الذي يجعل مديري الجامعات لا يعملون على تطوير جامعاتهم، على الرغم من أنهم جميعهم أو غالبيتهم من خريجي جامعات أمريكية وأوروبية، وكل واحد فيهم شاهد بنفسه كيفية الاهتمام بالطالب وكيف تتابع الجامعة خريجيها حتى بعد التخرج، وتوجد إدارة خاصة لمتابعة الخريجين، فلماذا لا يحاول أن ينقل هذا التطور إلى جامعته؟

الإجابة عن هذا السؤال المهم تختصر في كلمة واحدة السبب: النظام السياسي.

في الجامعات المتقدمة يجري اختيار مدير الجامعة عن طريق نظام من الانتخابات من لجان مختلفة، بعد ذلك يُتابَع أداء مدير الجامعة من لجنة متخصصة تكتب تقريرًا سنويًّا عن أخطائه، وتستطيع أن تقيله في أي لحظة. والجامعة مستقلة تمامًا في إدارتها عن التأثير الحكومي، ولا يستطيع رئيس الجمهورية أن يقيل مدير أصغر جامعة.

أما مدير الجامعة في السودان كان لا يُعين إلا بعد موافقة الأمن، أو الأمن الشعبي، وحتى بعد تعيينه يستطيع تقرير أمني واحد أن يطيح به من منصبه، ولو أنه اتخذ موقفًا جادًّا لمساندة الطلبة يُقال فورًا.. والنقيب في حرس الجامعة يعلم أنه أقوى بكثير من مدير الجامعة.

وهذا الانحطاط وصل إلى كل مرافق الدولة حتى وصلنا إلى الحضيض؛ لأن النظام في السودان كان يقدم الولاء على الكفاءة، ومن ثَمَّ فإن مدير الجامعة يعلم جيدًا أنه لم يعين في منصبه بسبب كفاءته، وأن هناك كثيرين أكفأ منه، لكنه حظي بمنصبه فقط بولائه للنظام، فلا يهمه الطالب ولا العلم، بل يسعى في كيفية إرضاء النظام.

إن أردتم لأجيالنا وطنًا متقدمًا وعزيزًا، فلا بُدَّ من النظام الديمقراطي، هو الوحيد الذي يجعل السلطة فيه للشعب، والسيادة فيه للقانون.

وهنا شعر المتعهد بخطورة عماد، وأن هذا المشروع لن يدر عليه ربحًا كما كان يتوقع، ولا مجال إلا بالتفاهم

معه، فدخل في مساومة معه كرئيس الداخلية، ولم يفوت فرصة واحدة في حياته في التكسب بالحرام، ففرض على المتعهد راتبًا شهريًّا مقابل أن يغض الطرف عن بعض المواد وجودتها. وبدأ عماد يقبض الراتب الشهري وأهمل المراقبة، وانشغل مع راتبه الشهري وكيفية توظيفه وساءت الوجبات والخدمات من المتعهد، وأصبحت لعماد تجارة خارجية، وأول مشروع له فتح مكتبة لخدمات الطالب بها آلات للتصوير لشقيقه الأكبر الذي ترك المدرسة قبل دخول المرحلة المتوسطة، وكذلك فتح لوالده محلًا صغيرًا (كشك) لبيع العصائر والمثلجات في السوق؛ لأن والده وصل إلى المعاش أو تقاعد عن العمل. وبدأ العمل ينمو ويتطور، وعماد ما زال يكسب من الكل ويسرق من الجميع، أولها الجبهة القومية الإسلامية، وثانيًا من المتعهد، لكن الخبر غير المفرح لعماد تهديدهم بالطرد من البيت، نظرًا إلى بلوغ والده المعاش، فهذا الأمر كان يشغل عماد كثيرًا.

وتوطدت علاقة عماد بجمعية التحفيظ، وهي لافتة كان الغرض منها تجنيد الشباب في الجبهة الإسلامية، وتم التعرُّف إلى أقطاب من الحزب في هذه القرية، وكذلك من يأتون إلى الاجتماعات من خارج القرية، وجذبهم عماد في حديثه اللبق وشكله وتهذيبه، وكان عماد يدير الجمعية الأدبية منذ كان في المرحلة الابتدائية، وتعرف قطبًا كبيرًا في الحزب، وهو المسؤول الأول في المكتب، واستغل

عماد الفرصة وحكى للرجل ظروف أسرته وأن والده بلغ المعاش، وليس لديهم مأوى يأويهم بعد ترك بيت الحكومة. تعاطف الرجل معه، ومن مبادئ الجماعة أن تقف مع العضو في أفراحه وأتراحه.. وقال لعماد: «دعني أناقش هذا الموضوع مع القيادة في المكتب بمدينة مدني».. وبعد يومين اجتمع مع عماد وحدَّدوا أو قرروا تأجير منزل بمدينة مدني لأسرة عماد، ويدفع المكتب الإرشادي الإيجار الشهري. وذهبا إلى مدينة مدني عاصمة الجزيرة، فهي لا تبعد كثيرًا من قرية كركوج مكان إقامة أسرته، وذهب معه إلى أحد البيوت وأُجِّر المنزل، وسيدفع المكتب الإيجار عن طريق ديوان الزكاة، وأصبح كل شهر يتسلم الحاج ساتي - والد عماد - شيكًا بمبلغ الإيجار، فأصبح والد عماد الذي بدأ مشروع بيع العصائر والمثلجات والآيس كريم في مدينة ودمدني قريبًا من عمله، بدلًا من ذهابه إلى مكان عمله بالمواصلات من المكتب أو السرايا، وكذلك شقيقه الذي له محل خدمات- الطالب كذلك أصبح قريبًا من عمله.

وفي تلك المدة انتشر النفاق وأصبح ثقافة، وتغير كل شيء في السلوك السوداني، وأذكر في إجازة لي قبل ثورة ديسمبر ذهبت إلى أحد الدوائر الحكومية في الخرطوم لإنهاء معاملة خاصة، وكان آخر إجراء هو مقابلة مدير هذه الدائرة، لم أنجح في مقابلته في اليوم الأول لكثرة المراجعين، وفي اليوم الثاني دخل المراجعون كل اثنين مع بعضهما حتى يخفَّ الضغط على المنتظرين. في أثناء انتظاري كانت معي في

الانتظار سيدة محترمة كانت تشكو إليَّ بكل مرارة الوضع العام والروتين الخاص بهذه المعاملة، وحكت لي أنها على مدى يومين متتاليين لم تستطع إنجاز هذه المهمة البسيطة، ومدير هذه الدائرة لم يسلم من ألفاظها القاسية.. فدخلت إلى مقابلة المدير مع هذه السيدة الغاضبة فإذا بها تندفع نحوه وتقول:

يا باشمهندس أنا قبل أي شيء أشكرك كتير جدًّا في كونك تسمح الدخول اثنين مع بعضهما، ودا ساعد في توفير الوقت وريحنا كتير.

وعندما سمع المدير هذا الكلام تفتحت أساريره، وأنا واقف مذهولًا، وقالت أيضًا: «إنها لم يطل انتظارها كلها ساعة فقط!!».

انتهيت من معاملتي وذهبت، ولكن لم أنسَ هذه الواقعة أبدًا وتذكرتها الآن بعد أن أصبحنا نعوم فعليًّا في مستنقع من النفاق.

ما هو النفاق؟

النفاق هو أن تظهر خلاف ما تبطن. تذكرت هذه الواقعة بعد أن وجدتني أسأل نفسي: لماذا نعيش هذه الحالة المتقدمة من النفاق في كل مناحي الحياة من إعلاميين وصحفيين ومديرون جامعات وموظفين، حتى البسطاء من الشعب؟ لكن الخطورة عندما تجد النفاق في علماء الدين، وبنفاقهم أصبح الخطر على الدين من رجال الدين

أنفسهم وليس من غيرهم، واتضح أنهم لا يسعون إلى عودة الخلافة الإسلامية التي ضاعت كما يدعون؛ لأنه أصلًا لا توجد خلافة في التاريخ وإنها كذبة، وليس خوفًا على الدين الذي ضاع؛ لأن الدين محفوظ من ربه، إنما خوف على امتيازاتهم وأموالهم التي كنزوها بنفاقهم للنظام البائد، والتي لا بُدَّ أن يُسألوا عنها في دولة القانون القادمة.

النفاق ليس طبيعة في السودانيين، وإنما هو تشوه سلوكي ناتج عن الاستبداد منذ ثلاثين عامًا، وما زلنا تحت تأثير حكم هذه العصابة الفاشية المستبدة، والنفاق ليس نقيصة أخلاقية، وإنما هو مرض له علاقة بالنظام الحاكم.

عندما نتذكر المدة التي عشناها وعايشناها بعد انتصار الثورة في ميدان القيادة العامة (جمهورية النفق) - هي المدة الوحيدة التي كانت صادقة وستظل عالقة في الوجدان - عندها أحسَّ الشبان والبنات بأنهم قد أعادوا دولتهم المسروقة من المستبد، هبُّوا لغسيل الشوارع وطلاء الأرصفة على نفقتهم، ورسموا أعظم لوحات جدارية كان من المفترض أن تكون متحفًا ومزارًا، لكن العقلية المستبدة أمرت بطمسها.

السيدة التي دخلت معها إلى المدير المستبدِّ تعلم جيدًا أن معاملتها بيد مدير هذه الدائرة، يستطيع ألا يوافق بتكملة الإجراءات إذا أغضبته، ولن يسأله أحد عمَّا يفعل، لعدم وجود دولة القانون، ولذلك فهي تنافقه لكيلا تخسر حقوقها؛ هذا يدلُّ على أن الاستبداد هو ما يجعلنا كذابين

ومنافقين وأنانيين وجبناء. إذا النفاق ليس طبيعة في الإنسان السوداني، وإنما هو سلوك ناتج عن الاستبداد.

إذا كنت حرًّا وأحسست أن هناك قانونًا يحميك، فلن تنافق السلطة أبدًا. أما إذا كنت وحدك أمام سلطة قاهرة غاشمة إرادتها هي القانون، فسوف تسكت عن الحق أو تنافق.

إذًا ما هي أسباب النفاق أو لماذا ننافق؟ ننافق عندما نخاف من السلطة الغاشمة إذا أغضبتها، وعندما نيأس من العدالة.

متى نتخلى عن النفاق؟

نتخلى عن النفاق بمجرد أن نتحرر من الديكتاتورية والاستبداد وتحكم دولة القانون، عندئذ نتحرر تلقائيًّا من الخوف وندافع عن الحق.

انتشر الكذب وانتشر النفاق، وكثر الزنا والسرقة والتحرش الجنسي، وزاد عدد أطفال فاقدي السند، وظهرت المخدرات وانتشرت بأنواع لم تكن معروفة، هذا كله بقدر انتشار جمعيات القرآن الكريم والحديث عن الدين وعن المحافظة عليه والبكاء على ضياعه، وأُدخِلت الآيات القرآنية في بعض المواد حتى تترسخ الفضيلة في عقول الطلاب ولم يحدث، فلم يكن هناك أثر إيجابي يذكر في النهج الجديد على السلوك، فبدلًا من ذلك كان على العلماء والمختصين دراسة الأسباب لهذا الانفلات الأخلاقي

والبحث عن الأسباب. في أثناء ذلك ظهرت أصوات من بعض أولياء الأمور، لا سيَّما النساء؛ لأنهن أكثر المتابعات لدراسة التلاميذ، وطالبن بتخفيف هذا المنهج بقصد بريء جدًّا، وهو أن الطلاب لم يستطيعوا حفظ هذه الكمية من القرآن مع مواد أكاديمية أخرى، وليس كما كان يعتقد أصحاب العقول المريضة أنه كان بقصد الرفض للدين، فهاج التيار السلفي وأقام الدنيا على هذا الطلب المنطقي، ويتحدث عن سحب آيات قرآنية من بعض المواد في المناهج الدراسية، ويقولون إن الدين قد ضاع، لكن لو سألنا هذه الأسئلة:

سؤال: ما هو الغرض من دراسة القرآن للتلميذ أساسًا؟

الإجابة: الغرض هو نشر الفضيلة في وسط الطلاب وفي المجتمع.

سؤال: بعد نشر الآيات في بعض المواد الأكاديمية هل فعلًا انتشرت الفضيلة؟

الإجابة: طبعًا لا؛ إن أخلاق السودانيين في زمن المشروع الحضاري، ومع نشر الآيات القرآنية في المناهج كان أسوأ من أي وقت مضى منذ تأسيس الدولة، ويتمثل الانحدار الأخلاقي في جميع مناحي الحياة؛ المعلم الذي يُدرِّس المنهج يغتصب تلميذته التي تدرُس المنهج، حتى أصبح الاغتصاب ظاهرة استوجبت مكافحتها.

انتشرت المخدرات خاصة وسط الشبان والشابات من درسوا ذات المناهج، بعد أن انتشرت تجارتها من دعاة المشروع الحضاري أنفسهم.

الفساد المالي والإداري حتى وصلنا إلى الحضيض في جميع مناحي الحياة.

انتشر التحرش الجنسي في وسط الطلاب خاصة وفي الشارع عامة.

انتشرت الدعارة بصورة مرعبة وسط الطلبة لدرجة أنها نوقشت في البرلمان المنحل.

الغش في الامتحانات أصبح ظاهرة مرغوبة ومنتشرة، هؤلاء الغشاشون هم أنفسهم من يدرسون القرآن.

وجميع من يفعلون هذه الموبقات لا يتطرق إليهم أدنى شك في صحة إيمانهم، إذا أصبح الإنسان كالحمار الذي يحمل أسفارًا.

وهذا يقودنا إلى أن الدعوة إلى إصلاح الأخلاق بدراسة القرآن والخطب في المساجد مهما كانت قوتها بمعزل عن الإصلاح السياسي، بالإضافة إلى سذاجتها وعدم جدواها، تؤدي إلى تشويش الوعي وشغل الذهن عن الأسباب الحقيقية للتدهور الأخلاقي.

والأسباب الحقيقية للتدهور الأخلاقي في دولة المشروع يعرفها الصغير والكبير؛ هي ممارسات النظام مدعي

الإسلام، الفاشي الديكتاتوري من ظلم واستبداد. لا يمكن أن تحارب الرشوة ما لم تحارب الفقر، ولا تستطيع محاربة الفقر إلا بوجود العدالة وبتكافؤ الفرص في التعليم وفي الوظائف وفي كل شيء.

فعندما يرى الطالب الذي يدرس القرآن أن أبناء حزب المؤتمر الوطني يلتحقون بأفضل الجامعات، ويحظون بأفضل الوظائف في نظام يدعي الفضيلة، وإذا مرض زميله يحظى بأفضل رعاية طبية في الداخل والخارج، في حين أن ملايين الفقراء المرضى يقتلهم الإهمال في مستشفيات الحكومة، وأينما وليت وجهك في عهد المشروع الحضاري مدعي الفضيلة ستجد الظلم وتجد من يأخذ شيئًا لا يستحقه، والبقية من الفقراء محرومين من أبسط حقوقهم. إذا من السذاجة أن تدعونا إلى مكارم الأخلاق بمعزل عن أي اعتبار آخر، وتحولت العبادات في عهد نشر الآيات في المناهج الأكاديمية إلى هدف في حد ذاتها، بدلًا من أن تكون وسيلة للترقي وتطهير النفس، غير أن يؤثر ذلك في سلوك الناس في الحياة، وهذا أدى إلى انفصال تام بين العقيدة والسلوك.

ولن يستعيد السودانيون إحساسهم بالانتماء وتنتشر الفضيلة في المجتمع إلا إذا استعادوا إحساسهم بالعدالة، فلماذا لم تنتشر هذه الموبقات في زمن الاستعمار؟ هل الإنجليز حكموا بالشريعة وأدخلوا الآيات القرآنية في المناهج؟ طبعًا لا، لكن كان هناك إحساس بالعدالة، وعندما يحس الإنسان بالعدالة يخرج أفضل ما لديه من فضيلة وأخلاق.

تذكرت هذا الحوار الذي دار بيني وبين الآنسة ندى، شابة سورية من أصل فلسطيني، طالبة دراسات عليا، شقيقها صديقي يحب السودانيين، تعرفته في مؤسسة إعلامية خليجية أتعاون معها. فقدت والديها في الحرب، لم تستطع اللحاق بشقيقها لتعقيدات الدخول إلى هذه الدولة، ولها شقيقتها وزوجها في السودان، وبعد معاناة طويلة استطاعت ندى دخول السودان، فالتقيتها في إجازتي السنوية بناءً على طلب شقيقها ودار بيننا هذا الحوار الحزين:

ندى: لقد قررت أن أترك الدراسة وأغادر السودان نهائيًّا إلى كندا.

لماذا؟

لم أعد احتمل أن أكون سلعة معروضة، كلما أخرج إلى الشارع أعاني نظرات الرجال وأشعر بأنني جسد لا أكثر وأتفادى الأماكن المزدحمة؛ لأن الزحام يعني من قوة النظرات أتخيل بأن يد الرجل توشك أن تمتد إلى صدري أو ساقي وأي مكان في جسدي.

هذا التحرش يحدث دائمًا في الأماكن المزدحمة فتجنبيها.

تركت استخدام المواصلات العامة نظرًا إلى زحام قد يحدث في كل مكان، حتى في الجامعة بقدر الأيام القليلة التي ذهبت فيها، فكانت تلاحقني النظرات الشهوانية إلى جسدي وتعريه، وهناك من يُسمِعني ألفاظًا جنسية. كرهت الخروج من المنزل خاصة بعد سفر شقيقتي وأولادها إلى

كنـدا، إلا للـضرورة.

إنك ترتدين ملابس قد تكون شاذة.

إطلاقـا، كـما رأيتنـي الآن هـذه طرحـة، وإن كان في سـوريا لم أسـتخدمها، وهـذه التنـورة والبلـوزة الطويلـة وحـذاء ريـاضي، وصديقـاتي السـودانيات أيضًـا يعانـين كـما أعـاني، وقـد يكـون أكثـر.

انتهـى الحـوار الحزيـن والمخجـل بيننـا، وبعـد شـهر مـن لقائـي إياهـا، ربنـا أكرمهـا وسـافرت إلى كنـدا.

فوجدتنـي أسـأل نفـسي كيـف يحـدث ذلـك في السـودان؟ احتفـظ بصـور لطالبـات في الثانـوي والجامعـات في السـبعينيات والثمانينيـات يرتديـن ثيابًـا عصريـة كثـيرًا مـا يكشـفن عـن ذراعيهـن أو سـاقيهن، وعـلى الرغـم مـن ذلـك فـإن نسـبة التحـرش الجنـسي آنـذاك كانـت أقـل بكثـير منهـا الآن

بحثـت في النـت عـن موقـع يدلنـي عـلى نسـبة البلاغـات ويحـدد نسـبة التحـرش في السـودان، فلـم أجـد، وسـأعتمد عـلى مـا سـمعت ورأيـت. عمومًـا النسـبة عاليـة جـدًّا عـلى الرغـم مـن مظاهـر التديـن التـي تشـكلت في عهـد المـشروع الحضـاري الإسـلامي، وقانـون النظـام العـام، وقنـوات فضائيـة دينيـة منتـشرة جميعهـا لم تفلـح في كبـح جمـاح هـذه الظاهـرة.

أسباب ظاهرة التحرش الجنسي:

أول مـا يتبـادر إلى الذهـن توجيـه التهمـة للمـرأة بسـبب

ملابسها المثيرة. إنهم يلومون الضحية ويتركون الجاني، واعتباره استفزازًا للرجل الذي يصوروه بأنه حيوان مجرد أن يلمح جزءًا من جسد المرأة لا يستطيع أن يتحكم في غرائزه، وسينقض عليه. وتوجد محجبات يتعرضن للتحرش، إذا الملابس والمظهر ليسا سببًا رئيسًا.

أولًا: صعوبة الزواج بسبب الفقر، مهما كانت قوة الخطب الدينية وانتشار القنوات الفضائية الدينية لنشر الفضيلة.

ثانيًا: البطالة، وهذا السبب مرتبط بالسبب الأول، وعدم تكافؤ الفرص في الوظائف، وهذا ما يجعل الشباب في إحباط وكبت جنسي يدفعهم إلى التحرش بالنساء، وساعد في ذلك مواقع التواصل الاجتماعي، وسهولة انتشار الأفلام الإباحية ومع توفر النت، حتى وصل بالشاب إلى مرحلة رفع الحرج عند ممارسته التحرش، ويعتبره متعة وليست جريمة.

وأخيرًا نظرتنا للمرأة أنها أداة متعة، وماكينة إنتاج أطفال، وخادمة بيت، وكل ما عدا ذلك أقل أهمية.

لن يتوقف التحرش بالنساء ما لم تتغير الظروف الاقتصادية، وتمنح الشباب فرص عمل تساعدهم في الزواج، هذا الأهم. الأمر الثاني يتم إدخال مادة من المرحلة المتوسطة يُدرَّس فيها الجنس ولو بصورة ضيقة، وتعريف التحرش والاغتصاب للتلاميذ وكيف يحدث

وتجريمه، ثم سنُّ قوانين تردع المتحرش، وبهذا نخلق مجتمعًا معافًى من هذا الوباء. فلن تستطيع أن تحارب الدعارة مهما أقمت ندوات دينية وخطبًا على منابر المساجد، واستخدمت رجال الدين في نشر الفضيلة، ما لم تحارب الفقر.

رجال الدين دائمًا يستخدمهم الديكتاتور. ما من ديكتاتور في العصر الحديث إلا استخدمهم كأدوات لتوطيد حكمه واستبداده، باستثناء الديكتاتوريات الشيوعية.

فقد استخدم موسوليني في إيطاليا رجال الكنيسة الكاثوليكية لدعم حكمه الفاشي، بالرغم من أنه ملحد.

واستخدم العسكر في الأرجنتين رجال الكنيسة في تغطية جرائمهم البشعة.

استخدمهم جمال عبد الناصر عندما فكر في التغيير، فتعاونوا معه حتى حدث التغيير، بعد ثورة يوليو تحولت علاقة التحالف والتعاون بينهما إلى صدام عنيف وكراهية، وهذا دليل على أن رجال الدين لا يرفضون الاستبداد من حيث المبدأ إلا إذا ساءت نتائجه.

حزب المؤتمر الوطني المنحل قد استخدم الدين ورجال الدين لإطالة عمره، لا لشيء إلا لسرقة البلاد وإذلال العباد. أحد مشائخ المؤتمر الوطني قال: «إن البشير ولي من أولياء الله الصالحين»، وشيخ سلفي آخر الذي صلى على بن لادن صلاة الغائب أيام الثورة قال: «لا يجوز الحديث في السياسة

في منابر المساجد»، مع أن أفضل الجهاد كلمة حق في وجه سلطان جائر. وبعد الثورة هناك من الشيوخ مَن حرَّض على فض اعتصام القيادة من على منابر مساجدهم، وهذا يتنافى مع القيم الإنسانية التي يحضُّنا عليها الدين.

لكن تبقى هناك دائمًا قلة من رجال الدين دافعوا عن حقوق الناس وانحازوا إلى الشعب ضد الحاكم الظالم، لكن أغلبية رجال الدين دعموا الطاغية وبرروا جرائمه.

وفي دولة القانون والديمقراطية لا نفوذ ولا سطوة لرجال الدين على الناس في حياتهم؛ لأن الحاكم خادم الشعب وأتى به الشعب ويرفضه الشعب إذا قرر ذلك، ولا يحتاج الحاكم إلى رجال الدين.

ما هي فوائد رجال الدين للديكتاتور؟

رجال الدين يفصلون مشكلات الناس اليومية عن الوضع السياسي. يعني ذلك أن مرضك وعدم علاجك وعدم رزقك وعدم شغلك يرجع إلى عدم إيمانك بالله وبعدك عنه، وليس من فساد النظام.

رجال الدين يجتهدون ويستخدمون جميع الفتاوى لكي يبعدونك تمامًا عن إدانة النظام.

رجال الدين يشغلونك بثانويات الدين؛ الحج والصلاة والعمرة والصوم والخمار والحجاب، ويصرفونك عن جوهره؛ الحرية والعدالة.

علماء الدين يستميتون من أجل بقاء السلطة الدينية ويدافعون عنها بأي ثمن، لماذا؟ لأنها تمنحهم نفوذًا وتدر عليهم المال الوفير، ولو قارنت بين صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذين كانوا يعملون ليكسبوا عيشهم، وبين هؤلاء الدعاة الذين يكسبون المال وكوَّنوا ثروات ضخمة يعيشون كالملوك!!

لسنا ضد الدين ولن تستقيم الحياة من دونه، ولكننا ضد التجارة به وضد من يقبضون الثمن من هذه التجارة، قال المفكر العربي عبد الرحمن البدوي: «قرأت تاريخ الشرق والغرب، وتأكدت لي هذه الحقيقة؛ عندما تتحول الدعوة إلى الدين إلى مهنة مدفوعة الأجر تأكد أن صاحبها دجال».

وهل عندما نتناول أو ننتقد تصرفات بعض علماء المسلمين متمثلة في هيئة العلماء، بهذا انتقصنا من إيماننا شيئًا على حسب هذه الجملة «لحوم العلماء مسمومة»؟

الذي أتى بهذه العبارة (لحوم العلماء مسمومة) هو الحافظ بن عساكر الدمشقي، عاش في القرن السادس الهجري، وهو من مفسري الحديث وصاحب الكتاب المشهور «تاريخ دمشق». ومن شدة ذيوع هذه العبارة والاستشهاد بها ظن البعض أنها حديث نبوي.

وهذه العبارة قيلت في عصر لفَّه كثير من التعصب

المذهبي والانحطاط الحضاري، وساده ضيق مذموم بكل مخالف للرأي، وقيلت في سياق جدل فِرَقِي جعل كل فرقة ترى مشايخها هم فقط العلماء ونقادهم مجرد أهل باطل.

والمراد من هذه العبارة عمومًا هو أن تلجم الخصوم المخالفين لرأي العلماء والمشايخ، بل وإلغاء مشروعية الخصم في نقد هذا الشيخ أو ذاك الذين ينحرفون عن الدين والفتاوى لصالح السلطان، فلا يريدون من يزعجهم بالنقد مهما فعلوا أو قالوا.

ومن هذه العبارة فُهم منها الفهم الخاطئ بأن العلماء معصومون من الخطأ، ولا يستدرك عليهم ولا يحق نقدهم، وهذا ما لم يفهمه عاقل يعي أن العلماء بشر كغيرهم، وإن فضلوا بحمل ميراث الأنبياء عليهم السلام، ولكي يكون الاستدراك والنقد عليهم بعلم وأدب (وتكون لحومهم مسمومة) عليهم بالآتي:

أولًا: ألا يكونوا علماء الدولة والسلطان، ينظرون ماذا تريد الدولة فيفتون بما تريده الدولة، ولو كان في ذلك تحريف كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم)

وثانيًا: ألا يكونوا علماء للأمة ينظرون ماذا يرضي الناس. إذا رأوا الناس على شيء أفتوا بما يرضيهم، ثم يحاولون أن يُحرِّفوا النصوص من أجل موافقة أهواء الناس.

وتكون لحومهم مسمومة إذا ما كانوا علماء للملَّة ينشرون دين الإسلام، ويفتون بدين الإسلام عن علم، ولا

يبالـون بـما دلَّ عليـه الـشرع أوافـق أهـواء النـاس والسـلطان أم لم يوافـق.

وإذا كان الأنبيـاء لهـم حـق التبجيـل والتعظيـم والتكريـم، فمـن الطبيعـي لورثتهـم، وهـم العلـماء، نصيـب مـن ذلـك، وفي توقيرهـم توقـير الشريعـة التـي يحملونهـا، وبإهانتهـم تهـان الشريعـة، وفي إذلالهـم وسـقوطهم أمـام أعـين النـاس سـوف يُـذلُّ العلـم الـذي يحملونـه في صدورهـم، ولـن تبقـى لهـم قيمـة عنـد النـاس، وكثـرة احتقارهـم والازدراء عليهـم فيـه ضيـاع للشريعـة وتمزيقهـا؛ لأن الـكل سـيصير عالمًـا وتضيـع الأمـة بسـفاهة بعـض العلـماء.

لذلـك ابتعـاد العلـماء في فتاويهـم التـي تـرضي السـلطان وألا تجـافي الحقيقـة والواقـع فيـه تعظيـم للديـن، وفيـه دلالـة عـلى سـماحة الديـن كـما فيـه تبجيـل واحـترام للعلـماء، وسـيقلل القـدح فيهـم.. ولكـن كلـما اقـترب العلـماء مـن الحاكـم زاد القـدح فيهـم، وسـيغتابهم النـاس ويكثـر الحديـث عنهـم وغيبتهـم، والحديـث عنهـم فيـه ضرر للإسـلام وللعقيـدة.

انقلاب الجبهة الإسلامية على الديمقراطية

على الرغم من المشاغل الضخمة التي كانت على عاتق عماد التي تتعلق بالحزب، وفي المدة الحساسة التي كانت الجبهة القومية الإسلامية تعدُّ العدة للانقلاب والانقضاض على الديمقراطية، وكان عماد من الناشطين في هذا الخصوص وعمل على ذلك، على الرغم من ذلك لقد اجتاز امتحانات المرحلة الثانوية في عام 1988 ودخل الثانوية، وفي عام 1989 كان انقلاب الجبهة الإسلامية على الديمقراطية واستيلاؤها على الحكم، وكانت بقيادة المخلوع عميد ركن عمر البشير، وقُبِل عماد بمدرسة مدني السني الثانوية.

وفي هذه السنة التقى عماد مرة أخرى رئيس المكتب، وأصبح من الأصدقاء المقربين لعماد على الرغم من فارق السن، ولكن القاسم المشترك بينهما كان الدهاء والانتهازية.

وفي يوم من الأيام سأل رئيس المكتب في الحزب عماد.

مدير المكتب: هل ما زلتم تسكنون بالإيجار يا عماد؟

عماد: من أين لي بشراء المنزل وأنت أعلم بالحال. فهز برأسه ووعده خيرًا

خـلال السـنة القادمـة سـنشرع لـك في مرابحـة وعمـل تجـاري، تتخلـص فيـه مـن كابـوس الإيجـار، وتتفـرغ لعمـل الحـزب والدعـوة.

وبعـد عـام مـن ذلـك التاريـخ ذكَّـر عـماد رئيـس المكتـب بمدينـة ودمـدني وعـده بالمرابحـة.

واقـترح عـلى عـماد التـالي: مـا رأيـك نسـتخرج لـك تمويـلًا وتسـتثمر مشروعًـا تـشرف عليـه أنـت وشـقيقك يوسـف؟

وافـق عـماد عـلى الفـور، وذهبـوا إلى أحـد البنـوك الإسـلامية التـي تحـت سـلطتهم مـن أجـل عمـل مضاربـة.

والتقوا المدير، وبتوصية من أحد الأقطاب.

وقال لعماد المطلوب منك التالي:

«هـات كشـف بأسـماء مسـتفيدين، وتتـصرف بأسـماء نـاس مـن قريتـك، وأصحابـك تحـاول المطلوبـ».

وجاء عماد وهو في حيرة من أمره.

في اليـوم التـالي ذهـب عـماد إلى رئيـس جمعيـة القـرآن وحكـى لـه المشـكلة، فأعطـى عـماد خطـاب تزكيـة مـن الجمعيـة وأخـذ عـماد خطـاب التزكيـة وطـار مـن الفـرح.

وذهـب عـماد إلى البنـك وقابـل المديـر وسـلَّمه الأوراق وخطـاب التزكيـة، والواضـح أن البنـك يسـتخرج التمويـل لجمعيـات تعاونيـة وليـس لأفـراد، لذلـك طلبـوا هـذه البطاقـات.

وبدأت الإجراءات وتم التوقيع، ووعدوا عماد بأن الإجراءات ستأخذ وقتها؛ لأن بعض الأوراق لم تكن مكتملة، وخلال هذه المدة سنبحث عن مخرج.

بعد بضعة أشهر من ذلك التاريخ تحصل عماد على قرض محترم.

وبين يوم وليلة تحول عماد من شاب فقير والده في المعاش، إلى شريك في «بزنس» بالملياارات وهو ما زال في المرحلة الثانوية.

وأخذ ذلك الرجل نصيبه من الصفقة، وكذلك مدير البنك وغيرهم. المهم أن عماد اشترى بيتًا لأسرته ورحلوا إليه وتركوا بيت الإيجار، وقتها كان عماد في السنة الثالثة بمدرسة السني مدني الثانوية.

وانتظم عماد في الدراسة في مدرسة مدني السني الثانوية، وهذه المرة كان يدرس وهو في منزلهم الجديد الذي اشتراه من القرض، وتحسن وضع الأسرة ماديًا، وأصبح لوالده دخل ثابت، وكذلك لشقيقه الأكبر محل لخدمات الطالب وتوسع في تجارته هو الآخر، وبعلاقة عماد أصبح شبه تاجر جملة للمواد المكتبية وحاجات الطلاب، وبدأ يسافر إلى الخارج؛ الصين ودبي، بغرض هذه المواد المكتبية وتوزيعها على التجار في السوق.

وجُنِّد عماد مع جماعة حزب المؤتمر الوطني، وهذا الملف الشائك - تجنيد الصغار - مليء بأسئلة كثيرة

لا تجد إجابات كافية، حول كيفية تجنيد حزب المؤتمر الوطني عناصره، وضمهم إلى صفوفه، وكيفية اختيارهم وكيف يغضون الطرف عن السلوكات، وكيف يتم إقناعهم بأفكاره ومبادئه ومعتقداته؟ وكيف يصبح هذا العنصر عضوا فاعلًا في الجماعة ويجد طريقه للترقي، وربما يصبح أحد قياداته في المستقبل؟ يبدو من مبادئ الجماعة أن يكون العضو المستهدف صاحب مواصفات خاصة تضعها الجماعة ليتناسب مع مخططاتها وأهدافها، وتركز الجماعة في هذا الإطار على الشخص ذي الكاريزما منذ أن يكون شبلًا ثم طالبًا بالمتوسطة وحتى الجامعة.

ويعتبر عماد من الأوائل الذين عُيِّنوا في منسقية الدفاع الشعبي، وهي الجهة التي تجهز المجاهدين المتطوعين للحرب في الجنوب إبان حرب الشمال والجنوب، والذي استطاع حزب المؤتمر الوطني والشعبي قبل المفاصلة بتصنيفها في خطبهم وتحشيدهم بأنها حرب دينية بين الكفار والمسلمين، واستطاع شيخ الترابي - الأب الروحي للتنظيم أو الحزب - تجييش الشباب وحشدهم دينيًّا للجهاد في الجنوب، وانضم التيار السلفي إلى هذه الحملة، وكانت مجموعة من شيوخ التيار السلفي تقدم الخطب الدينية الحماسية التي تدعو إلى الجهاد ويحسهم عليه، وذلك في ميادين مقرات الأفواج المسافرة إلى الجهاد، لكن هؤلاء الشيوخ صمتوا عندما انتهكت البيوت وعندما اُعتقِلت النساء واُغتصِبت، فهؤلاء الدعاة الجدد يحمون مصالحهم

ومنافعهم، ومنذ أن ظهروا على السطح تغير كل شيء، حتى طريقة الدعوة اختلفت، وكان واضحًا أنهم يختلفون عن دعاة الدين ورجال الدعوة السابقين. أذكر في قريتنا النائية الجميلة «كركوج» التي تتوسد خضرة الجزيرة كان فيها عمنا وشيخنا الفكي بابكر.. قريتنا التي عندما أزورها أخشى أن أرى بيتنا المهجور.. وأتذكر فيه أمي.. ورائحة أمي.. وأسمع صوت أمي يناديني.. وحضنها الدافئ وأحن إليها.. وكيف لي أن أعتصر تلك الذكريات.. وشقائها بعد وفاة والدنا وكانت تخبز لنا (السامبكسة) نبيعها بعد اليوم الدراسي تحت «شجرة حاج اللمين» وكانت فنانة في تطريز الثياب النسائية وكذلك في الطواقي وعمم العرسان.. رحمة الله عليك يا أمي حاجة هدية بقدر ما قدمتِ وأعطيتِ وهذه وصية لكم: «لا تنتظروا رحيل أمهاتكم لتقولوا لهن شكرا».

كان في القرية شيخنا وعمنا الفكي بابكر أبو إدريس العركي – رحمة الله عليه – مهيب الطلعة بقامته وبابتسامته وزيه ونظافته، يحفظ القرآن بأكثر من قراءة، فكان عالمًا جليلًا يلجأ إليه الكبير والصغير في الجودية وفي حل مشكلات القرية، وكان يؤم الناس عشرات السنين ويقدم لهم الفتوى والدروس للنساء والرجال، ولم يغب عن أداء الأوقات في أحلك الظروف، ولم يكن واردًا إطلاقا أن يأخذ أجرًا عن هذا الجهد، بل كان يزرع ويحصد بنفسه، ويوزع ما تجود به حواشاته من محاصيل على الأرامل واليتامى.

فكان الجميع في القرية يحترمه ويجله، وإنه كان عالم الدين الحقيقي لا يقل احترامًا عن الدكتور والمعلم. وتقديم الفتاوى من غير مقابل مادي، فكانت هي مهمة علماء الدين الحقيقية. لكنَّ زمن الفكي بابكر قد ولى وتغير السودان منذ أن استولت الجبهة الإسلامية على الحكم بالقوة، وظهر جيل من الدعاة الجدد مختلفين في كل شيء، وبسبب طبيعة السودانيين المتدينة وعدم اطلاع المتعلمين من مصادر الدين الأصلية لعدم التفرغ إليها وازدياد عدد الأميين، وجد هؤلاء الدعاة وتجار الدين الفرصة للدخول في قلوب البسطاء، خاصة بعد انتشار الفقر وضيق الحال واللجوء إلى الله للفرج عن هذا الضيق، وصاروا مصدر الثقافة الدينية لمعظم أهل السودان، ولعبوا دورًا خطيرًا في تشكيل وعي مجموعة كبيرة من المواطنين، وبدعم لا محدود من الدولة.

ويجب أن نتذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام عاش فقيرًا ومات فقيرًا، وصحابته لم يتكسَّبوا قط من الدعوة الإسلامية، بل كانوا ينفقون عليها كما كان يفعل شيوخنا القدامى أمثال فكي بابكر، ينفقون من مالهم الخاص الذي تحصلوا عليه بمجهودهم لحل مشكلة عائلية، ثم إن دعوة الناس إلى الله في التاريخ الإسلامي لم تكن وسيلة لصناعة الثروات، وعندما أرى المئات الذين يأتون للصلاة في مسجد أحد الشيوخ المنتفعين من النظام ليسمعوا خطبته ويحدثهم عن الصحابة وعن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام،

ثم يذهبون إلى بيوتهم فلم يجدوا وجبة صغيرة أو حليبًا لأطفالهم، في حين يزيد رصيد الداعية في البنك بالملايين، وهو لا يعمل غير أنه داعية - أتعجب من هذا التناقض. ولا يحدثهم عن العدل ولا الحرية والمساواة وهي جوهر الإسلام.

وأمثاله من الدعاة الجدد تجار الدين يعتمدون على إثارة عواطف المصلين، وتبلغ ذروتها عندما يتحشرج صوت الداعية ويرتجف قليلًا وكأنه يبكي، وأحيانا يبكي ثم يواصل الحديث، ويدفع الحضور بالبكاء مع كلامه. يحدثهم عن حكومة الثورة وفجورها وكفرها وكذبها، في حين أقرَّ الرجل الأول في حزب المؤتمر الوطني بامتلاكهم قناة طيبة والصرف عليها من حر مال الشعب الفقير، في حين نكرها هذا الداعية بأن لا علاقة للقناة بحزب المؤتمر الوطني المنحل، ومن هذه الكذبة الواضحة أو الفضيحة أم جلاجل اتضح أن هؤلاء الدعاة الجدد لا يعارضون حكومة الثورة لفجورها أو لكفرها كما يدعون، ولكن يعارضونها خوفًا على مصالحهم التي تضررت وخوفًا من محاكمتهم التي دنت، لذلك يحشدون الناس ضد الثورة، وسيدعون إلى الجهاد ضد الحكومة عندما يشتد عليهم الخناق، وقريبا جدًّا ومع ظهور هؤلاء الدعاة الجدد وتكفيرهم لكل من يختلف معهم يكفرونه ويخرجونه من الملَّة، وأصبحت الأفكار متطرفة، وظهرت القاعدة وظهرت داعش التي تمددت، فهي لم تأتِ من السماء ولم تأت من أبوين غير

شرعيين.. خرجت داعش من بطن الكتب التي يقرأ منها هؤلاء، ثم يبثون سمومهم للناس، وتناسل فكرها حتى أصبح كالبعوض في كل مكان في العالم. لقد تهاون العالم الإسلامي في ردم مستنقعات التراث مدة طويلة، فخرج منها هؤلاء وانتشروا حتى وصلوا قبل مدة على بعد خطوات من قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بمتفجراتهم، يريدون إقامة الإسلام بمفهومه على بعد سنتمترات من قبر المصطفى (عليه الصلاة والسلام)!!

الآن يحاربون داعش في كل العالم بطريقة ليست ناجعة، بل قد تجعلهم أكثر انتشارًا وخطرًا جدًّا على مستقبل البشرية جمعًا؛ لأنهم سيواصلون التمدد خارج المستنقعات، وعندها سيصعب جدًّا الحد من خطورتهم على الناس جميعا.. والسودان ليس بمنأى عن هذا الخطر، فإن أردتم محاربتها حقًّا وهزيمتها في مهدها عليكم بردم هذه المستنقعات التراثية، وليس ردمها بالطائرات والقنابل، بل بالأفكار وبالدين الصحيح، وردم الموروثات الفقهية البالية التي شوَّهت الإسلام. فداعش أصلها من هذه الأحاديث الفقهية الموروثة التي كثير منها لم تثبت صحته، وعليكم بالتوقف عن اتباع شيوخ الإسلام كما أسموهم، والذين أجازوا تكفير الناس وقتلهم وتقطيعهم وتفجيرهم، وكأنهم خلقوا ضد إرادة الله تعالى.

لن تُهزَم داعش بالسلاح، وما هي إلا عمليات تفريخ لها ستصيب العالم كله بعدوى الكراهية التي تتبناها هذه الجماعة.

إن أردتم حماية الحبيب المصطفى (عليه الصلاة والسلام) فعليكم أن تحموا أولًا سنته الصحيحة من آلاف الأحاديث المغلوطة والمقولة عليه.

عودوا إلى الله تعالى على حقيقة ذاته سبحانه.. وعودوا إلى الأخلاق التي بعث الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام ليتممها للناس.

النظام الشيوعي السابق لم يفعل في المسلمين طوال سبعين عامًا ما فعله فيهم نظام الدولة الإسلامية في العراق والشام المعروف «داعش» في أقل من سنة.. كما لا نبرئ النظام العالمي الجديد الذي أطلق أيادي الجميع وأعطاها الحق في ذبح الضحية دون استئذان أحد ووقف يشاهد، وكان الداعم السياسي لها في بعض الأحيان.. وكل ذلك في غياب الشيوعية.

إن الشيوعية العالمية بكل ممارساتها، وبكل أشكال العنف التي اتبعتها، لم تقتل المسلمين بهذه الصورة التي قتل بها داعش المسلمين ذبحًا وحرقًا ورجمًا وبيعًا للنساء في سوق النخاسة. الشيوعية لم تقتل المسلمين، ولكن ربما تكون أغلقت مساجدهم ومنعت صلاتهم وسجنت الدعاة منهم، لكنها لم ترتكب يومًا هذه المذابح.

إن تيتو، آخر رئيس يوغسلافي شيوعي، لم يفعل في المسلمين في البوسنة ما فعلته بهم قوات الصرب.

ولم يرتكب ستالين، آخر رئيس شيوعي روسي قوي،

مذابح في دولة الشيشان كما فعل فيها الرئيس يلتسين والرئيس بوتين وجيوشهم.

كانت الشيوعية أرحم بكثير للمسلمين من «داعش» ومن «القاعدة»، وكذلك من دعاة الديمقراطية وحقوق الإنسان والنظام العالمي الجديد.

إنني لا أدافع عن الشيوعية، فهم أدرى بالدفاع عن حزبهم.. مشكلتي مع الشباب المتحمس الآن لنصرة الدين وفكرتهم الخاطئة عن الشيوعية وهجومهم من غير دراية نتيجة لثقافتهم السمعية والمبنية على السمع من منابر المساجد من شيوخ متطرفين، فلا قراءة لواقع التاريخ أو السمع من جهات مطلعة.

إن ما حدث من مذابح في البوسنة وفي الشيشان، وما حدث في سوريا وفي العراق وفي العالم الإسلامي سوف يظل وصمة عار في وجه التيار الإسلامي الجديد المتمثل في داعش والقاعدة، وما ارتكبوه من جرائم ضد المسلمين وحدهم لا سواهم، وأيضًا النظام العالمي الجديد وكل هذه الجرائم ضد الإنسانية لا دخل للشيوعية بها وحدثت في غيابها.

لقد اندفعت قوات الرئيس الروسي بوتين إلى سوريا، ألم يكن هو البديل للشيوعية؟ كما دفع يلتسين بصواريخه وجيوشه تطارد المسلمين في كل مكان، ألم يكن هو البديل الأول للشيوعية؟ واعتبرت أمريكا مشكلة سوريا مشكلة

داخليـة كـما فعلـت في الشيشـان، ووقـف كل العـالم يشـاهد صامتـا الدبابـات وهـي تطحـن المسـلمين في سـوريا كـما طحنتهـم في الشيشـان وفي العـراق مـن قبـل.. وكل هـذه الجرائم كانـت في غيـاب الشـيوعية.. الرئيـس الـروسي السـابق يلتسـين الـذي وقـف بالمرصـاد لـكل محـاولات إنقـاذ البوسـنة مـن قـوات الـصرب التـي ارتكبـت أبشـع أنـواع التطهـير العرقـي في وسـط أوروبـا كان بديـل الشـيوعية، كـما وقـف اليـوم بوتـين بديـل الشـيوعية بالمرصـاد في محاولـة لإنقـاذ السـوريين.

وظـن المسـلمون بحسـن نيـة أن بعـد رحيـل الشـيوعية سـينعمون بالأمـن والأمـان كـما صـور لهـم الإعـلام الغـربي ذلـك، وقـد فرحـوا لرحيـل الاتحـاد السـوفيتي والشـيوعية، فلعـل هـؤلاء يذرفـون الآن الدمـع غزيـرًا عـلى تلـك الأيـام التـي كان المسـلمون فيهـا يعيشـون في أمـن وسـلام عـلى الرغـم مـن تسـلط النظـم الشـيوعية.

وكان عـماد يُعـدُّ مـن أفضـل الخطبـاء لمهمـة الجهـاد في الجنـوب، وتجييـش النـاس باسـم الديـن والجهـاد ضـد الكفـار الشـيوعيين، واسـتمال الكثـير مـن الطـلاب، وكان يلقـي المحـاضرات في المـدارس وفي الجامعـات.

عـماد في طريقـة كلامـه ومـن ذكائـه يسـتطيع أن يقنعـك بأشـياء مـن الصعـب أن يقنعـك بهـا شـخص آخـر، وهـذا يسـمى بعلـم العلاقـات العامـة، وبـارع في هـذا المجـال قبـل أن يدرسـه أو يتـدرب عليـه، وعلـم العلاقـات العامـة فكرتـه تغيـير صورتـك السـيئة أمـام النـاس، أو تحسـينها حتـى يروهـا

بصورة أخرى، مثلًا قد تكون بخيلًا ويتصورك من حولك كريم.. وقد تكون كريمًا ويتصورك من حولك بخيلًا.. وقد تكون متحررًا لدرجة المجون ويعتقدك الآخرون تقيًّا وورعًا.. وقد تحب جيرانك لكنهم يبتعدون عنك بسبب لا تعرفه أو لصورة رسموها لك من خلال تصرف خاطئ أو انفعال في غير محله، أو آراء قلتها وأساءوا فهمها.. تلك مشكلات قد نواجهها في حياتنا ودائمًا ما نشكو وتنتهي إلى نتيجة واحدة، وهي أن الناس لا تفهمنا أو أن من حولنا يسيئون فهمنا.

لو حدث لك ذلك لا ترمي باللوم على الآخرين، فلماذا يسيئون فهمك أنت وحدك ويفلحون في فهم الآخرين إلا يمكن أن يكون العيب فيك! بمعنى لماذا الناس تفهم عماد ولا تفهمك أنت؟

هناك مبدأ ظهر في ثمانينيات القرن الماضي في الغرب، وهو يقول ليس شرطًا أن تكون إنسانًا طيبًا ليدرك الآخرون ذلك، وهذا المبدأ صار مع بعض التعديل هو أساس لما يعرف باسم علم العلاقات العامة.

وعلم العلاقات العامة ليس حكرًا للشركات أو المؤسسات، وفي تحسين صورة الأحزاب، ويطبق على الأفراد وبمختلف أهميتهم. وفي الغرب هناك حملات ضخمة تقام من أجل تحسين صورة مرشح معين أو مسؤول كبير في عيون الناس وإبراز الجوانب الإيجابية فقط وإخفاء السلبيات.

على مستوى الأفراد العاديين هناك أساتذة في فن العلاقات العامة أمثال عماد، يرسمون ابتسامة عريضة ويستقبلونك بحلو الكلام وأحر المشاعر، وترى النور يشع من وجوههم ويدخل لك بعض الآيات القرآنية والأحاديث، وأضف علامة الصلاة في الوجه، وهؤلاء يستطيعون أن يقنعوك بآراء ولا تقبل بها في حال عرضها عليك شخص آخر.

وفي الوقت نفسه هناك من يتفننون في الإساءة لصورتهم، فهم يلقون آراءهم السيئة في وجهك بلا أدنى حذر، ويهاجمون الدنيا والناس بلا سبب، أو ينفعلون ويثورون إلى درجة مخيفة، وقد يملك بعض هؤلاء قلوب الأطفال، لكنَّ قليلين حولهم هم الذين يستطيعون أن يدركوا ذلك.. فيما يسهل أن يضحك عليك بعض من يملكون قلوب ونفوس الشياطين، فتقترب منهم بسرعة وتسقط في شراكهم مرات، حتى تكتشف بعد فوات الأوان أن من كنت تحسبه موسى هو في الحقيقة فرعون كما يقول المثل.

إنها ليست دعوة للكذب على الناس، بل مراعاة مشاعرهم وأفكارهم ونحن نتعامل معهم، ومن السهل أن يسقطوا في شراك الشياطين بهذا السحر الأسود (العلاقات العامة).

فأبرز الأحداث العالمية الكبرى أحداث «مفبركة» لا تستند إلى واقع.. ولكن صنعها الإعلام والعلاقات العامة، وصاغتها كاميرات التلفزيون وشاشات القنوات الفضائية

والأقمار الصناعية. ولهذا تهاوت كل هذه الأحداث الكبرى أمام مرآة الحقيقة.

وأبرز هذه الأحداث نهاية الاتحاد السوفيتي مثلًا برواية جيدة النص والإخراج والتنفيذ، واستطاع كاتبها أن يقنع العالم بأن الاتحاد السوفيتي كان بالفعل يحمل بداخله من التناقضات والمشكلات ما يجعله ينفجر من الداخل، وأمام هذا التصوير الدقيق كان من الصعب أن يتصور أحد أن هناك أسبابًا أخرى وراء هذا السيناريو الدقيق، وأن للمسرحية أبطالًا آخرين خلف الكواليس. تلاشت دولة نووية عظمى من الوجود بفعل إعلام بسيط ومتخلف، مقارنة بإعلام اليوم والتكنولوجيا التي يمكنها أن تفبرك لك كل شيء وأنت جالس في غرفة نومك.

وبسذاجة صدق العالم قصة نهاية القوة العظمى الثانية في العالم؛ لأنها تعاني خللًا إداريًّا وفسادًا اقتصاديًّا.. على الرغم من أن العالم كله يعلم أن هناك دولًا كثيرة تعاني الفساد ولم تسقط في دقائق، وأن هناك مشكلات كثيرة لا حصر لها كانت تحاصر العالم، وكثير من الدول كانت تعاني هذه المشكلات وأكثر من ذلك ولم يكن ذلك سببًا في انهيار هذه الدول.

كانت أوروبا تعاني مشكلات كثيرة في اقتصاداتها أكثر بكثير من مشكلات الاتحاد السوفيتي، ولكن لم تسقط ولا دولة في أوروبا، وأكبر دليل على ذلك عندما هُدِم جدار برلين وتوحدت ألمانيا، وتحملت ألمانيا دولة أخرى كاملة،

وهي ألمانيا الشرقية، تحملتها بسكانها ومصانعها العاطلة وفسادها ومخدراتها ولم تسقط ألمانيا.

وأمريكا كانت تعاني ارتفاع الدين العام، وارتفاع نسبة البطالة إلى مستويات كبيرة جدًّا، وكانت لديها مشكلة التأمين الصحي وانتشار الفقر بين كثير من الطبقات وميزانية التسلح.. والإنفاق النووي وبرامج غزو الفضاء والمساعدات للدول النامية وقواعدها المنتشرة، وعلى الرغم من هذه المشكلات لم تسقط أمريكا كما سقط الاتحاد السوفيتي، الدولة النووية الثانية في العالم بهذه السهولة في دقائق معدودة.

والصين الدولة الكبرى بسكانها الذين يفوق عددهم المليار نسمة ومساحتها ومشكلاتها، ألف مليون نفس بشرية في الصين يريدون الطعام والمسكن والملبس والتعليم وفرص العمل والعلاج، فلم تسقط الصين، بل بقيت هي وسقط الاتحاد السوفيتي.

لهذا بقي غياب الاتحاد السوفيتي سرًّا غامضًا، ربما كانت له بعض المبررات الموضوعية، ولكنها ليست كافية أبدًا لإسقاط دول في حجمه ومكانته، والأرجح ما رأيناه على خشبة المسرح كان فقط جزءًا من الحقيقة، والباقي كان يدور خلف الكواليس.

لذلك المفبركات التي يقوم بها علم العلاقات العامة

خطورتها لا تقتصر على الشركات أو الشخصيات فقط، ممكن أن تطال دول كبرى في حجم القارة وأكبر كما رأينا في كيفية انهيار الاتحاد السوفيتي.

وفي ذلك الوقت كان ما يعرف بقطاع الطلاب يتسلل في المدارس الثانوية متخذًا من النشاط الطلابي واجهة للعمل وسط الطلاب، وذلك عبر احتكاره لما يعرف بجمعية القرآن الكريم في إطار النشاط الطلابي المتعدد الجمعيات. ومعروف أن النشاط الطلابي هو أحد إدارات وزارة التربية والتعليم المكمل للعملية التربوية، وقطاع الطلاب هو تنظيم سياسي يتبع للمؤتمر الوطني، ولا علاقة له بالتربية والتعليم وكوادره من خارج أسرة التعليم أو المدرسة، مهمته ممارسة تجنيد الطلاب المتفوقين وإغراؤهم بالمال وبالهدايا والرحلات، ومقابلة المسؤولين من المعتمدين والولاة، حتى رئيس الجمهورية، الذي اعتاد أن يستقبل هؤلاء الطلاب في منتجع القيروان في جنوب الخرطوم، ومن ثَمَّ تبدأ عمليات منظمة لغسل أدمغتهم بواسطة مختصين وكوادر أمنية بإشراف الاتحاد العام للطلاب السودانيين. وكانت الأحزاب السياسية المعارضة كلها تركت ساحة المدارس الثانوية تمارس العمل السياسي المنظم عبر جمعية القرآن الكريم في إطار النشاط الطلابي المصرح به، ولا تستطيع الاعتراض على ممارسات قطاع الطلاب أو تطالب بحرية العمل السياسي أسوة بما يقوم به قطاع الطلاب، أحد أذرع المؤتمر الوطني، والذي تمكن من طلاب

الثانويات، المورد الأساسي لطلاب الجامعات، التي يسيطر المؤتمر الوطني على اتحاداتها كنتيجة حتمية للبناء القاعدي الذي انفرد به المؤتمر الوطني داخل المدارس الثانوية، وفي معسكرات عزة السودان التي تركت للمؤتمر الوطني يجند كوادر الطلاب قسرًا.

وخلال هذه السنة قرر عماد الذهاب إلى الجنوب للجهاد في الجنوب، التقى صديقه دفع الله وكانا مع بعضيهما طيلة الشهرين في الجنوب، لم يفترقا حتى أصيب عماد في قدمه برصاصة وأُسعِف، وكان يرافقه صديقه دفع الله، وعولج عماد في السلاح الطبي بالخرطوم، ثم نُقِل إلى خارج السودان للعلاج.

وظل عماد عضوًا فاعلًا في الجماعة، وكانت الجماعة تمارس نشاطاتها التجنيدية في صفوف الأشبال من خلال ما يعرف بمشروع التربية الإسلامية، وأصبح من المؤثرين في ندوات التي تُقام في المساجد والمدارس الأهلية، وتحت مسمى مسابقات لحفظ القرآن الكريم بحكم فصاحته وهيبته التي لا تخفى على أحد، وكان يشرف على من جُنِّدوا حتى يتطور المستهدف، وبعدما يُجَنَّد سيكون هو الآخر وسيلة للتجنيد، وكان عماد يُجهِّز الرحلات والإشراف عليها للمستهدفين، فكانت أيضًا إحدى الوسائل التي يُجَنَّد من خلالها، وكان شاطرًا جدًّا في تجهيز المسابقات والأنشطة والحفلات، وكان لا يفوت فرصة الاستفادة والسرقة منها، وفيها يُكرَّم المتفوقون والمتميزون من طلاب المدارس، وهنا

تتسع المساحة للتجنيد، حيث يسهل رصد واختيار العناصر المتميزة تعليميًّا، ويبدأ بعدها مشرف من أبناء الجماعة في التقرب لهم، وتنظيم برنامج ولقاء أسبوعي لزيادة التقارب وتوطيد العلاقة، وخلالها يشرح لهم مبادئ وأفكار العمل بالجماعة ودور الفرد، وأن الجماعة تقوم لخدمة الدين وتعاليمه.

ومن خلال تلك اللقاءات يستطيع المشرف معرفة من يميل من هؤلاء الطلاب للجماعة، ومن يمكن أن يكون عضوًا فيها، وعلى الفور يُضم بلا تردد. وأن الجبهة القومية الإسلامية، وعقب العام 1989، أدخلت عدة تغييرات في نشاطها داخل الجماعات لتجنيد الطلاب، إذ استحدثت لجنة طلابية في كل جامعة تتكون من مجموعة من أفراد يتولى أحدهم عقد لقاءات سياسية وتثقيفية، وتوزيع بيانات ونشرات على الطلاب، ومن ثَمَّ يسهل رصد واختيار المناسب لهم للجماعة.

عندما ترى هذه النشاطات وهذه الدعوات، والإسلام هو الحل، وتطبيق الشريعة الإسلامية، تعتقد بأن السودان دولة جديدة في الإسلام، وأنهم يريدون إدخال هذا الشعب المسلم الإسلام من جديد، وهذا ما يدعونا إلى هذا السؤال المهم: هل السودان دولة إسلامية وتطبق الشريعة؟ نعم السودان دولة إسلامية وتطبق الشريعة الإسلامية بكل حذافيرها.

وهناك فرق بين تطبيق الشريعة وتطبيق الحدود، وكان

تطبيق الحدود خاضع لأعراف المجتمعات القديمة، ولم تكن ترى فيه شيئًا مشينًا، وكانت أقل وقعًا وتكلفة، ثم إن الإسلام لم يأتِ بحدود لم يعرفها العرب، وكان الرسول (عليه الصلاة والسلام) يراعي العرف السائد في ذلك الوقت، ولقد تغير الزمن وتغيرت الأعراف، أما الشريعة التي ينادون بتطبيقها فهي فعلًا مطبقة بالكامل في السودان دون أي نقصان، في جميع مراحل الإنسان السوداني، من مرحلة الولادة حتى يموت ويلقى ربه.

أولًا: الولادة:

في السودان نولد على الشريعة، وأول كلمة تسمعها أذن السوداني هي لا إله إلا الله محمد رسول الله، يسمعها من والده أو والدته مجرد ما ظهر في الدنيا، وقبل أن يتناول في حياته الدنيا نقطة حليب واحدة.

ثانيًا: التربية:

نتربى في السودان على الشريعة، لم نسمع في السودان عن رب أسرة، سواء كان متعلمًا أم غير متعلم، أنه يربي أولاده على أن السرقة حلال وأن الزنى حلال، لم نرَ فتاة تأخرت عن وقت المغرب دون علم والدتها إلا ونالت عقابًا شديدًا، في بلادي يحثون أطفالهم على عدم الكذب وعلى أداء الصلاة، وعلمونا أن الأديان جميعًا جاءت من أجل حفظ كرامة الإنسان وحريته، ونعلم طبعًا أنها نسبيه في كل أنحاء الأرض.

ثالثا: الزواج:

نتـزوج في السـودان أيضًـا عـلى الشريعـة، في زواجـي قـال الشـيخ في ميكرفـون الجامـع سـمعته كامـل مدينـة أم درمـان - قـولي قبلـت الـزواج منـه - وقـال يحـل هـذا العقـد عـلى كتـاب الله وسـنة نبيـه (عليـه الصـلاة والسـلام) وعـلى مذهـب الإمـام مالـك أو أبـو حنيفـة النعـمان، أو عـلى أي مذهـب يحـل عليـه العقـد - وقـال للمـوكل عـن زوجتـي ارفـع صوتـك يـا ابنـي بهـا - فقـال قبلـت بالـزواج منـك - بعدهـا لم يكـن إشـهار كـما أمـر الـشرع - لا كان فـرح يشـبه الفضيحـة - علمـت بـه أم درمـان كلهـا والقـرى المجـاورة.

رابعا: الموت:

في السـودان نمـوت عـلى الشريعـة، هـل سـمعت عـن أحـد مـات في السـودان وألقـوه في البحـر؟ هـل سـمعت في السـودان عـن أحـد مـات لم يكفـن ولم يصـلَّ عليـه ويسـيرون في جنازتـه وتبكـي عليـه النسـاء؟ هـل سـمعت عـن ميـت لم يغسـلوه؟ - حتـى بعـد دخولـه القـبر - يقـف رجـل ويقـول لـه: إن سـألوك مـن ربـك قـل الله، وإن سـألوك عـن نبيـك فقـل محمـد بـن عبـد الله - يسـمونه التلقـين - وهـذا يتـم والرجـل في قـبره، حتـى وهـو في قـبره يلاحقـه شرع الله.

خامسا: بعدما مات الشخص (الورثة):

مـات الرجـل ودفـن - نعـود إلى الورثـة - يُـوزَّع الورثـة عـلى الشريعـة (وللذكـر مثـل حـظ الأنثيـين) - يقـف أكـبر أبنائـه

وينـادي في النـاس - أنـا فـلان ابـن فـلان الميـت أمامكـم - وأتعهـد بسـداد أي ديـن أو حـق في رقبـة والـدي المتـوفى - لا إلـه إلا الله — يقـول مـن لـه حـق عنـد والـدي يأتينـي وسـيأخذه منـي هـذا قبـل أن يدفنـوا الرجـل، فيذهـب إلى ربـه ليـس عليـه ديـن ولا حـق لأحـد.

وهـل هنـاك ديـن إسـلام آخـر غـير الـذي تعلمنـاه وتعلمنـا شريعتـه؟ أم مـاذا تريـدون؟ هـؤلاء الشـيوخ الذيـن يبكـون عـلى الشريعـة الإسـلامية لم نسـمع لهـم صوتًـا في ثلاثـين سـنة عندمـا كان النـاس يُقتلـون وتُنتهـك حرمـات البيـوت وتنهـب مـوارد الدولـة ويدمـر الوطـن، ويمـوت النـاس بالتعذيـب في المعتقـلات وتنتهـك آدميتهـم. إن جوهـر الإسـلام الدعـوة إلى الحـق والعـدل والحريـة، وهـؤلاء الشـيوخ يشـغلون العقـل المسـلم بـكل مـا هـو ثانـوي في الديـن، يشرحـون للنـاس الديـن في شـتى مجـالات الحيـاة إلا الحقـوق السياسـية للمسـلمين، بـل إن بعضهـم كان يلـوي عنـق الحقيقـة ويسـتهدف تدعيـم الحاكـم المسـتبد وإعفـاءه مـن المحاسـبة.

لقـد أدرك النـاس انتهازيتهـم واسـتغلالهم للمنابـر، ولم يعـد لديهـم وزن إلا وزن الشـحم واللحـم والعظـم، ولا فضـل لهـم بهـذه الأوزان، لأن للبغـال وزنًـا أيضًـا وإن خـفَّ عـن أوزانهـم.

الشـعب السـوداني شـعب عظيـم لـو تركـوه حتـى مـن غـير مراقبـة لأحسـن التـصرف والأدب، ووجـود هـذه الطغمـة الفاشـية ثلاثـين عامًـا في الحكـم أصابتـه ببعـض التشـوهات السـلوكية، فقـد الشـعب الثقـة في الحكومـات التـي سـتأتي،

وليس من السهل عودة هذه الثقة، وتحتاج إلى عمل صادق ودؤوب حتى تعود هذه الثقة، ولكي تتعرف سماحة هذا الشعب إليك هذه الواقعة:

قبل سنوات ذهبنا أنا وهدية ابنتي الصغيرة لشراء الخبز، وفي المخبز وجدت كيسًا على جدار المخبز، عندما لاحظت ابنتي اندهاشي شرحت لي: (هذا كيس فيه خبز يشتريه الناس للمساكين) وفوق الكيس مباشرة ورقة مكتوب عليها (اشتري لك ولغيرك) وراقت لي الفكرة واشتريت. انتظرت أخذ الخبز لأضعه في الكيس، لكن يبدو حسب النظام أنت تدفع وسيضعه عامل المخبز في الكيس.

ذهبنا وابتعدنا من المكان، ثم خطر لي أن أراقب من بعيد، وانتظرت فإذا بعامل المخبز أخذ كمية من الخبز ووضعها في الكيس. وبعدما انفضَّ الجمهور من أمام المخبز جاءت سيدة أخذت كمية من الخبز وأغلقت الكيس كما وجدته، وجاء شاب فأخذ ما يكفيه وأغلق الكيس، ومر على بائع الفلافل عمل منها «ساندويتشات» وانصرف.

وأنا في الطريق فكرت بعد ذلك فيما حدث، هؤلاء سودانيون وجدوا أنفسهم فجأة بلا رقيب ولا حسيب، كان بإمكان عامل المخبز أن يأخذ المبلغ ولا يضع الخبز، والسيدة تأخذ كل الموجود في الكيس وكذلك الشاب، وجميعهم تصرفوا بأدب وأمانة، لكن على الرغم من تصرفهم الشريف في هذه الواقعة قد يتصرفون بطريقة مختلفة في مواقف أخرى.

مثلًا لو كان فرضت الدولة ضريبة على المتبرعين وقالت لهم سأصرفها في شراء الخبز للفقراء، هل سيدفعون؟ فلن يدفع أحد وسيتهربون من الدفع بأي طريقة.

ولو كان المتبرع للخبز هي الدولة وليس مواطنين عاديين، فهل كان سيتصرف المواطنون كما رأينا؟ طبعًا لا، وسيأخذون من الخبز زيادة على حاجتهم.

المتبرعون وجدوا أنفسهم أمام قضية عادلة، الذي سيأخذ الخبز إنسان محتاج، لذلك تبرعوا دون أي تردد، وكذلك المحتاجون أخذوا ما يحتاجون إليه فقط، لعلمهم بأن المتبرع مواطن.

أما ضرائب الدولة لن يتأخروا أبدًا في الهروب منها، لأنها قضية كاذبة، فلن يدفعوا لانعدام الثقة بين المواطن والحكومة، ويتوقعون منها الكذب والشر، والضرائب لا يدفعها جميع المواطنين، وليس هناك عدالة في فرضها، ولا تصرف في خدمة المواطن، وإنما تصرف للفاسدين وفي تمويل الميليشيات وأجهزة الأمن التي تقتل المواطنين. وليس من حقك أن تسأل أين صُرفت الضرائب التي دفعتها للدولة ولا توجد ثقافة التعامل مع المال العام.

ظهر خلف رئيس وزراء بريطانيا ديفيد كاميرون في مكتبه ماكينة قهوة باعتبارها باهظة الثمن (147 إسترليني) انقلبت الدنيا ووجهت له أسئلة: على شاكلة من أين أتيت بهذه الماكينة هل من فلوسنا أم من فلوسك؟

مـن حـق دافـع الضرائـب أن يعلـم، وردَّ بـراون عـلى هـذه الأسـئلة المنهمـرة عليـه بأنـه نـشر الفاتـورة التـي تثبـت بأنـه اشـتراها مـن مالـه الخـاص، لذلـك تجـد النـاس في الدولـة الديمقراطيـة يتعاملـون مـع المـال العـام بحسـاب شـديد جـدًّا، ويحافظـون عـلى ممتلـكات الدولـة، ويعلمـون أيـن سـتصرف الضرائـب التـي يدفعهـا.

ومـن حـق المواطـن أن يسـأل فيـما صرف الرئيـس وفيـما أنفـق، والثقـة بـين المواطـن والدولـة متوفـرة ويسـتدلون مـن البيانـات الرسـمية عـلى مـا تؤكـده، فـإذا أعلنـت وزارة الصحـة خلـو مدينـة مـن مـرض مـا تأكـد لهـم أن المـرض غـير موجـود، لأن الوزيـر لم يكـذب عـلى الشـعب وهكـذا. ليـس المقصـود أن السـودانيين شـعب بـلا عيـوب، بـل إن النظـام الفـاشي قـد أصابهـم بعيـوب سـلوكية كثـيرة مـن واجبنـا أن نحددهـا وننتقدهـا ونعالجهـا. ومـا الـذي ينقـص هـذا الشـعب؟ أحيانًـا كثـيرة أعيـد هـذا السـؤال عـشرات المـرات نحـن لا ينقصنـا شيء، هـذا السـؤال يـؤرق كل إنسـان شريـف وطنـي غيـور يحـب أهلـه ووطنـه.. فهـل يـا تـرى هـذا السـؤال يقلـق ويـؤرق مضاجـع النُخـب السـودانية التـي سـتُحمل الأجيـال القادمـة مـا سـوف تعجـز في المسـتقبل عـن تحملـه، ومـا يجعـل تلـك الأجيـال تلعننـا لسـوء تصرفنـا وسـفاهة تصرفاتنـا في المـاضي.

مـا هـو الـشيء الـذي لا نجـده في كل فكـرة وكل تطبيـق لهـذه الفكـرة؟ مـا الـذي يمنـع الفكـرة الجميلـة مـن أن تعيـش طويـلًا، ويجـيء مـن يضيـف إليهـا فكـرة أخـرى أو تعديـلات

أخـرى، ويسـتمر كل شيء نحـو مـا هـو أفضـل؟ مـا الـذي يجعـل الواحـد منَّـا يقـف في وجـه الـرأي الجديـد.. والاجتهـاد الجديـد؟ والموهبـة الجديـدة؟ بـل بالعكـس، إذا كنـت موهوبًـا في السـودان أنـت إذن في مشـكلة كـبرى، ووضعـك أحسـن لـو كنـت عاديًّـا أو خائبًـا، لأن نظـام الفـاشي صُمِّـم للعاديـين ويضيـق عـلى النوابـغ. ومسـتقبلك يتوقـف عـلى مـدى علاقتـك بالحـزب وليـس مؤهلاتـك أو موهبتـك، والموهبـة تثـير عـلى صاحبهـا الضغائـن، وهنالـك متطوعـون مـن ينشـط لتدميرهـا.

كـم مشروعًـا صفَّقنـا لـه، وكان التصفيـق نوعًـا من تشـجيعه عـلى المـوت حيًّـا؟! كـم مـن واحـد منَّـا أطبـق عـلى صـدره سره ومـات حـسرة لأن لا أحـد يسـتمع لـه، أو لم يمكنـه مـن أن يقـول شـيئًا ينفـع النـاس؟ ونـرى ونسـمع بالعلـماء السـودانيين المنتشريـن في قـارات العـالم وضربـوا المثـل الحـي في الـذكاء والعبقريـة.. إذًا مـا السـبب؟

الأطبـاء السـودانيون منتـشرون في مشـارق الأرض ومغاربهـا وفي أعظـم مستشـفيات العـالم.. ولنـدن أعظـم أطبائهـا سـودانيون.. في حـين مـا زلنـا نتسـول العـلاج في الخـارج، وتُبـدَّد الكثـير مـن الأمـوال ونحـن في حاجـة إليهـا في العـلاج، بالإضافـة إلى التعـرض لكثـير مـن الابتـزاز وسرقـة الأمـوال!! ولمـاذا وصـل الوضـع الصحـي في السـودان إلى أسـوأ مراحلـه؟ والسـودان يزخـر بكفـاءات طبيـة عالميـة ولهـا بصماتهـا التـي لا تخفـى عـلى أحـد في العـالم؟

ما الذي ينقصنا؟

جيل من المعلمين السودانيين تشهد لهم دول الخليج في إسهامهم في تطوير نُظم التعليم فيها، وشهدوا لهم بالكفاءة والخبرة والأمانة.. والأمثلة كثيرة والقائمة تطول ويطول معها الأرق والخوف..

ما الذي ينقصنا؟ وما هو الشيء الذي لا نجده؟

وما من جلسة إلا وتدور فيها أشكال وألوان من هذه الأسئلة، وتنتهي الجلسة عادةً بعبارة واحدة، وهي كفن لكل فكر وكل عمل وكل عالم موهوب، إنه شي غريب وعجيب: «نحن السودانيين هكذا».

لكنَّ السؤال ما معنى «هكذا»؟ معناها أننا عاطفيون، حتى هذه الكلمة ليست دقيقة، ولكن معناها أننا نتحمس بسرعة ونخمد الحماسة بسرعة. أو بعبارة دقيقة: نارنا قش، والقش يشتعل بسرعة وينطفئ بالسرعة نفسها، ويعود كل شيء إلى ما كان عليه قبل ذلك.. ولكن لماذا أيضًا؟ هذا هو السؤال الجوهري المهم في كل مناقشة لنا.. أو كل نقد ذات أو تجريح ذاتي.. ونحن السودانيين ميالون إلى التجريح أكثر من ميلنا إلى النقد، لأن النقد مناقشة هادئة.. والتجريح مناقشة دامية.. ونحن ميالون إلى الدم في الكلام.. لماذا تثبيط الهمم.. وقتل المواهب في مهدها.. وإحباط المبدعين؟ فلماذا كل هذا؟ لأننا ينقصنا: الاستمرار، والاستمرار معناه القدرة على الصبر على تحقيق فكرة.. وبشرط أن نكون قد

آمنَّا بالفكرة واقتنعنا بها، وعندنا استعداد آخر للتضحية من أجلها.. ونحن ليس لدينا صبر ونستعجل النتائج.. والتضحية تحتاج إلى الصدق، ومعناه أن نكون صادقين عندما اقتنعنا، وصادقين عندما قررنا المضي في تحقيق هذه الفكرة أو هذا المشروع، فإن توافر الصدق وأخطأنا لسبب ما كان الصدق شفيعا لنا، لأن كل من يعمل يخطئ، والذي يخطئ عن حسن نية غير الذي يتعمد الخطأ. والإهمال واللامبالاة يعتبران من الأخطاء المتعمدة، ونحن اليوم في السودان نعيش اللامبالاة وفي أبهى صورها.

وهناك صفة أخرى، وهي إننا أصبحنا أنانيون، بمعنى أن كل واحد يقول: أنا وليس بعدي أو أمامي أو خلفي أحد، أنا أكسب أو أنجح ثم لا ينجح أو يكسب أحد غيري، وهذا خطأ فكري وعملي.. وهذا التفكير حتى على مستوى مديري الإدارات والمديرين وحتى زعماء الأحزاب هم كذلك بل وأسوأ.. ولا يستطيع أحد وحده أن يحقق شيئًا، فلا بُدَّ من الآخرين.. وهذا سبب إحباط لكل مبدع ولكل شاب.. فلا بُدَّ من إقناع الآخرين ودفعهم بالفعل إلى أن يعملوا معنا لكي ننجح ولا يهم من الذي ننسب إليه هذا الفعل.. لماذا أيضًا؟ باختصار هي الأنانية وحب الذات وتضخيمها.

فلا بُدَّ من الحياة الجماعية أو المشاركة العملية.. لكي نحقق عملًا عظيمًا.. إذن فالعيب في داخلنا نحن.. ونحتاج إلى تربية طويلة.. تربية روحية.. تربية وطنية.. وتربية

عامة.. وأساس هذه التربية النموذج السليم والأهم فوق كل ذلك القدوة الحسنة على كل المستويات.

من أخطائنا أننا نحاول أن نبدأ مشاريعنا كبيرة، ثم يدركنا الضجر والملل ونترك المشروع في نصفه. ليس لدينا مشروع وصل إلى نهايته، لأننا لم نبدأ بمشاريع صغيرة ونصبر عليها ونكبرها، وكأننا قررنا ألا ننجح عندما نجحنا، وكما أننا مدمنون النظر إلى الوراء ولم ندمن المستقبل، وبدايتنا لأي مشروع متوهجة، ولكنها تنطفئ بسرعة، وخلقنا كل مقدمات هذا النجاح الناقص، متى نتخلى عن هذا السلوك السوداني الأصيل؟

وأمامنا تجربة إسرائيل وما أحدثته في صحاري مصر أيام احتلالها سيناء؛ أقامت فندقًا صغيرًا ومتواضعًا، لكنها كانت فكرة لنواة لإقامة مئات الفنادق والقرى السياحية، بعدها اكتشف المصريون هذه المناطق السياحية على شواطئ البحر الأحمر، فأقاموا بعدها القرى السياحية والفنادق. كما ضربت لنا إسرائيل المثل العلمي الناجح في المستوطنات الصغيرة، فكانت في كل شيء بداية صغيرة ناجحة، ثم كبرت وزرعت وصنعت وتصدر ما فاض، وأصبحت صاحبة البحث العلمي الأول في كل مجال. إسرائيل حتى في السلام بدأت مع أفراد ثم منظمات، فلم تيأس عندما صنعت سلامًا مع منظمات صغيرة، حتى تطورت وأصبح السلام عابرًا للدول، واليوم إسرائيل صانع أساسي للشرق الأوسط الجديد. والآن ترى الدول في حال هرولة لصنع

السلام معها وعقد الصفقات التجارية، من ثَمَّ غيرت وجهة نظر العالم فيها بعد أن كانت دولة معتدية وقاطعها العالم، سعت ولم تيأس حتى أصبحت الآن في نظر العالم هي الضحية. إسرائيل كانت بداية صغيرة ناجحة لكل شيء، فما هذا الذي حدث؟ الذي حدث هو إقامة مؤسسات ناجحة أنيقة مدروسة، والمهم أن تكون مدروسة وأن تبدأ صغيرًا ليكون نجاحك كبيرًا.

عماد في جامعة الخرطوم كلية القانون والمفاصلة بين الحزبين

وجلس عماد إلى امتحانات الشهادة السودانية 1992، جمد سنة نظرًا إلى ظروف علاجه من طلقة إصابته في «الجهاد»، وعلى الرغم من أن عماد كان مصابًا مدة من الزمن، بالإضافة إلى أعماله التجارية، فإنه استطاع أن يجتاز الامتحانات، وأحرز نتيجة ممتازة أهلته بالدخول جامعة الخرطوم، كلية القانون، ومن مبادئ الجماعة الاعتماد على طلاب ما قبل الجامعة، وإلى حين دخولهم الجامعة لا يحتاجون إلى كثير من الجهد، وأن الجماعة تعمل منذ العام 1987 عدة مشاريع تستهدف المدارس، ولها عدة لجان لاختراق المنظومة التعليمية، ويخضع هذا المشروع وينحصر دور العاملين فيه على استخدام جميع الوسائل المتاحة، لنشر فكرهم داخل المدارس، واستقطاب العناصر الجديدة، ودعم الإذاعات المدرسية، وأُلغِيت الجمعيات الثقافية وذلك لاستقطاب أكبر عدد من الطلاب عن طريق

جمعياتهم التي أصبحت بديلًا لهذه الجمعيات.

وعند دخول الطلاب الجدد الجامعة لا يحتاجون إلى كثير من الجهد، ويصبح التجنيد داخل الجامعات يجري من خلال استقطاب الطلاب الجدد بالاعتماد على الكوادر التي تم تأهيلها في المدارس، وهم من يشجعون الطلاب الجدد ويحثونهم على المشاركة في أنشطة الجماعة، مقابل تقديم التسهيلات والخدمات الطلابية لهم.

وعندما وقعت المفاصلة، وكان عماد في سنته الأخيرة بالجامعة، ولقد جمد عماد أكثر من سنتين في الجامعة، لتأثير الطلقة التي أصيب بها في الجهاد في حرب الجنوب في صحته، وكذلك عمله السياسي أو تفرغه من قبل الحزب، وهذه عادة من يعملون بالسياسة في الجامعات؛ يُطلَب منهم التجميد وبعضهم لا يتخرج إلا بعد عدة سنوات.

عندما ابتدر الرئيس المخلوع عمر البشير في اليوم الثاني عشر من شهر ديسمبر عام 1999، الموافق 4 رمضان 1420هـ جملة قرارات تقضي بحل البرلمان وإعلان حالة الطوارئ في جميع أنحاء البلاد، وإعفاء د. حسن الترابي من كل مناصبه الدستورية وكرئيس للبرلمان، وأيضًا عزله من الحزب الحاكم، وأبقى على الترابي بالحجز المؤقت في بيته في حي المنشية بالعاصمة الخرطوم تحت حراسة أمنية شديدة.

اختار البشير رئيس الجمهورية، ورئيس حزب المؤتمر الوطني، ورئيس هيئة الشورى العامة للمؤتمر الوطني زيًّا

عسكريًّا مكتملًا جلس به على منصة رئاسة الشورى، صباح العاشر من ديسمبر 1998م، لأول مرة، إذ إن الشورى مؤسسة شعبية بعد المؤتمر العام، وقد ظل يرأس جلساتها منذ 1994 بالزي القومي السوداني. لكنه تهيأ يومئذ لإبلاغ رسالته التي أفصحت عنها مناسبات كثيرة في مستقبل مسار المؤتمر الوطني، ولإبلاغ الرسالة الخاصة التي تأمر نفر مهم في المؤتمر الوطني بعلمه لاختطاف اجتماع الشورى ولتتأكد أخبار المساء التي حملها نفر إلى الأمين العام - الشيخ حسن الترابي.

وتطورت الأحداث بصورة درامية، وانتهت بالترابي حبيس السجن حقيقة وليس تمويهًا هذه المرة. وؤكل لرئيس جهاز الأمن ، والمخابرات العامة في تلجيم مجموعة الترابي، أو جماعة المنشية كما أطلق عليها بعد ذلك بحزب المؤتمر الشعبي. فهو في المكتب الخاص يعلم خبايا وأدق أسرار التنظيم، وتخرج وتعود من بين أصابع يديه كل الخيوط التي ترسم حركة التنظيم في سكنه وحركته. وكان يعذب المعتقلين، وشهد الكثير بتعذيبهم في سجون المعتقلات، وفي بيوت الأشباح التي أسسها، ومنهم من فقد روحه في أثناء التعذيب.

واستدار الزمان كهيبته الأولى وأجواء المفاصلة، ومكَّن لهم في كل مفاصل الدولة وابتلعوا كل شيء، وبالنتيجة تناسل سرطان الفساد، وكما قالها ابن رشد قبل تسعة قرون كاملة: «السلطة المطلقة مفسدة مطلقة»، وقد بلغت

الحال الاقتصادية الدرك الأسفل.

ولقد أزاح البشير رئيس جهاز الأمن من قمة المؤسسة الأمنية عام 2009، وتردد أن السبب الخفي كان تذمر وشكوى رئيس جهاز الأمن من تمدد الفساد، قد يكون السبب ليس الفساد وحده، لأنه أصلًا موجود منذ بداية الإنقاذ، لكن يبدو أن رائحته فاحت وانتشرت.

ورئيس جهاز الامن هذا الرجل، اُعتقِل من قبل البشير في محاولة انقلابية ضده، وعُذِّب في عهد الفريق الذي خلفه في المنصب ، وأجريت له عملية قلب وهو في السجن، وأُطلِق سراحه بعفو من البشير صاحب السلطة المطلقة؛ يعفو ويسجن كما يشاء، وبعد صراعات الرؤوس الكبيرة أزيح بموجبها ما يريد، ، ثم أعاد البشير الرئيس السابق لجهاز الأمن مرة أخرى، واعتقل الذي تم تعينه بدلا عنه يعني تبادل أدوار، وكان هناك رجل هو الذي يدير المشهد بكل خفية؛ هو سبب اعتقال رئيس الجهاز السابق، وسبب هذا الدمار، وبعد مدة هرب بكل أسرار الدولة.

وكانت صراعات وبيع للوطن تدور ولا ندري إلا الظاهر، وكان الصراع كبير جدًّا بين الفرقاء؛ المفروض أنهم رجال الدولة حافظو أسرارها، وهؤلاء الأمناء فيهم من حمل حقيبته المثقلة بكل أسرار الدولة وولى وجه شطر الشرق، ومنهم من حمل ما خفَّ وزنه وعظم معلوماته في حقيبته واتجه غربًا، وباعوا كل أسرار الدولة وهربوا جميعًا،

وتركـوا الوطـن بـلا أسرار لمـن يدفـع أكثـر. وتذكـرت قصـة أمـيرة ويلـز وخيانـة خادمهـا، لقـد كنـت واحـدًا مـن المعجبـين بأمـيرة ويلـز الأمـيرة ديانـا؛ أتابـع أخبارهـا منـذ زواجهـا مـن الأمـير تشـارلز، والـذي كان زواجًـا أسـطوريًّا في عـام 1981، وحتـى وفاتهـا في الحـادث المؤلم في عـام 1997، خاصـة في وقت وأنـا طالـب بالمرحلـة الثانويـة العليـا.. فلـم أتـرك لهـا صـورة.. أو مقـالًا في جريـدة يتحـدث عنهـا إلا قرأتـه بإمعـان وحـرص شـديدين، وكنـت أتابـع قصصهـا، وكانـت تلهمنـي بجمالهـا وجاذبيتهـا وبإنسـانيتها وتواضعهـا، ومسـاعداتها المحتاجـين في كل وسـائل الإعـلام المختلفـة، وعـلى قلتهـا في ذلـك الزمـان، وفي محطـة BBC، وتعاطفـت معهـا كثـيرًا.

قصـة ديانـا نمـوذج لقصـة مختـصرة جـدًّا؛ بنـت بسـيطة تزوجـت مـن أمـير، وأسرة ذات بروتوكـولات صارمـة، وأسرة عليهـا الأضـواء، ديانـا مـن عائلـة بسـيطة، تربـت وترعرعـت خـارج العاصمـة لنـدن في مدينـة سـاندرينجهام، وكانـت ملكـة جمـال إنجلـترا، وهـي الزوجـة الأولى لتشـارلز أمـير ويلـز، وهـو الابـن الأكـبر للملكـة إليزابيـث الثانيـة.

اقتحمـت حيـاة أمـيرة ويلـز ديانـا الكثـير مـن الأقـوال.. تلـك المـرأة الجميلـة، فكانـت منكوبـة دائـمًا في سـمعتها منـذ ظهـرت إلى الأضـواء.

لقـد جـاءت مـن قلـب المجتمـع الإنجليـزي بـكل بسـاطتها وبراءتهـا، وحلمـت مثـل كل الفتيـات أن تشـاهد فقـط تاريـخ إنجلـترا العريـق ممثـلًا في أسرتهـا الحاكمـة.. وفجـأة وجـدت

نفسها واحدة من هذه الأسرة العريقة بكل تاريخها وتحفظاتها وميراثها الطويل.

وكانت أول مشكلاتها هذا الصراع الدامي بين بساطتها وطقوس الآخرين، بين فتاة تريد أن تحب وأن تُحَبَّ وتعيش حياتها بتلك البساطة دون قيود.. وبين أميرة تُفرض عليها الظروف أنواعًا كثيرة من الشكليات والبروتوكولات.

ووقعت الفتاة الجميلة الصغيرة فريسة للحيرة والتساؤل.. كيف ستقضي عمرها وسط هذا السجن الذهبي الجميل الذي يحسده عليها الكثيرون من جنسها؟ على الرغم من أنه في النهاية سجن حتى لو كان من الذهب.

كيف تستطيع أن تحتفظ ببراءتها وسط هذه الطقوس؟ وكيف لها أن تمارس الحياة بكل بساطتها أمام قوانين اجتماعية وأسرية صارمة؟ وكان من الصعب عليها أن تستسلم ببساطة.. وطاردتها الإشاعات والقصص والأضواء، وتابعتها الصحافة الإنجليزية في كل مكان تذهب إليه، وكانت موضع انتقاض في كل حركاتها.. لبسها.. وأناقتها.. حتى أكلها وشربها.. بل ودخلت الإشاعات غرف نومها.. لقد دفعت الثمن.

وظهرت عشرات الكتب تتناول حياتها الخاصة، وأدى ذلك كله إلى تفكك حياتها الزوجية.

ووقف زوجها الأمير تشارلز يعترف أمام الجميع

بعلاقة مع امرأة أخرى..

وأخيرًا كانت الضربة القاسية التي جاءت لها من أحد أصدقائها الأنذال.. لقد نشر مدربها في لعبة الفروسية قصة غرامه معها، لكي يحصل على خمسة ملايين دولار مرة واحدة من كتاب باع مائة ألف نسخة في يوم واحد، وأصبح المدرب النذل مليونيرًا بفضيحة واحدة.. وقامت الدنيا ولم تهدأ على رأس الأميرة المسكينة، البعض صدق المدرب النذل، والبعض الآخر لم يصدقه، فهي زوجة غير عادية وليست من عامة الناس، لذلك الكل يتناول قصصها باستمتاع حتى لو كانت القصة ملفقة، وفي الحالتين وجد قراء الفضائح قصة جديدة يقضون معها وقت الفراغ.

لقد رسخت في ذهني الكثير من المواقف المحزنة وكذلك الشخصيات المثيرة للجدل في حياتها، ولكن أكثر ما هزني في تلك الشخصيات هو خادمها الخائن.. ويتمثل في شخصين في الحقيقة هما مدربها الخاص والحارس الخاص لزوجها الأمير تشارلز، وهاتين الشخصيتين بغضتهما بغضًا شديدًا، نظرًا إلى خيانتهما للأمانة وإفشائهما أسرار العائلة، واستغلالهما الموقف حسب مفهومي في ذلك العمر، لقد وقع الأمير تشارلز فريسة سهلة لخادمه الخاص الذي كشف أسرار الرجل وحياته.

وشرب الأمير من الكأس نفسها التي شربت منها الأميرة ديانا مع مدربها الذي ادعى أنه كان على علاقة بها.

هاتان الشخصيتان - المدرب والحارس الخاص - وجدا نفسيهما أمام سلسلة طويلة من الفضائح، فقررا أن يستفيدا منها ويبيعا ما عندهما في هذا المزاد الكبير الذي كانت تشهده إنجلترا في ذلك الوقت حول أسرار وخفايا الأسرة المالكة. فلو كان في ذلك الوقت قرصنة على البريد الإلكتروني لنشرا ما تشيب له الرؤوس.. ولنشرا كل التسجيلات التي كانت تدور بينهما كحال خونة هذا العصر، وكانت البيعة ستكون بمبالغ أضخم بضخامة الفضيحة ومستنداتها التي لا تكذب.

فهل يا ترى وجد أحد الهاربين نفسه أمام فرصة كفرصة الخادم الخائن، ويبيع أسرار سيده الذي وثق به وائتمنه وأعطاه كل شيء، ويفضحه بتسجيلات صوتية وأفلام وغيرهما، وهي بالطبع تعتبر أسرار دولة وخطيرة جدًّا، وفي اعتقادي قد تكون هنالك مفاوضات وحالات ابتزاز ضخمة بضخامة محتواها، ودارت رحاها في غرف مظلمة في هذا «المزاد الكبير»، وبالتأكيد كنَّا غائبين عن المشهد ولا نعلم بالذي كان يدور كما تعودنا دائمًا.

وعلى الرغم من أن الخادم بقي مع الأمير خمسة عشر عامًا، كان فيها مطلعا على كل أسراره، فإن هذه السنوات لم تشفع للأمير عند خادمه كي يحفظ سره ويصون حياته.. لا أدري، فهل للفريق أمن الهارب شيء من النخوة حافظ به على أسرار من أتى به من غياهب العدم وأعطاه رتبة عسكرية تحتاج إلى عشرات السنين من الدراسة والاجتهاد

والسفر والبحوث في لحظة نشوة كما وهبوا كل الوطن للآخرين أيضًا في لحظات نشوة؟

وفي زمان مضى كان الخادم يموت لكي ينقذ سيده.. وكان يعرف كل شيء ولا يبوح بأي شيء ويدفن وتدفن معه في قبره.

والآن في زماننا هذا، الخادم يبيع كل شيء.. ولأنه استباح كل شيء من السهل جدًّا أن يبيع الخادم أسرار سيده من أجل حفنة من الدولارات وبثمن بخس.. وأن يبيع مدرب الخيول أسرار الأميرة التي أدخلته بيتها وأجلسته مع أبنائها واعتبرته صديقًا.

ولكنَّ المدرب الخائن وجد أمامه فرصة نادرة لكي يجمع صفقة كبيرة من المال، فباع الأميرة وخسر نفسه وكسب الأموال وهرب.

وما فعله المدرب الخائن فعله أيضًا الخادم الخائن الذي حكى كل شيء عن حياة الأميرة، وعلاقته بصديقته وكيف كان يذهب إليها متسللًا.. وكيف كانت تُعامل في القصر كزوجة تأمر وتطاع.

وهل يا ترى ماذا حكى إلى من دفع له عمَّا كان يدور في داخل القصور أم عمَّا كان يدور في الدولة كلها، فالخيانة واحدة، قد تختلف الجنسيات والديانات، ولكن الخصلة واحدة تسمى خيانة.

وقد برر الخادم خيانته بأنه وجد الأمير نفسه يعترف

بكل الفضائح أمام الناس.. وربما وجد الخادم أن هذه فرصة نادرة لا تعوض أن يصبح يومًا ثريًّا، ولو كان ذلك على حساب الأمير الذي قضى معه خمسة عشر عامًا.

لا شكَّ أن الزمان تغير وإذا كانت الخيانة أصبحت الآن عملًا بسيطًا سهلًا، فقد أصبح الوفاء أيضًا شيئًا نادرًا للغاية.

ولكن مع الفريق أمن الهارب الوضع يختلف تمامًا، فالوضع هنا عملية لبيع وطن وبيع لحقوق أجيال وشعب شبع مرضًا وبؤسًا وفقرًا وجهلًا، بسبب الجاهل الذي أدخله القصر، وهذه من الأخطاء القاتلة التي يجب أن يحاسب عليها.

إنها محنة الإنسان السوداني الذي باعوا كل شيء في وطنه في هذا الزمن من أجل المال، ثم بعد ذلك سيخسرون أنفسهم.. ولكن في اعتقادي الإنسان الجاهل يعتبر بيع أسرار الوطن «فهلوة» وشطارة وفرصة لا تعوض، ولا يحسب لخسارة النفس وبيع الأوطان أي حساب، لو كانوا يحسبون لخسارة النفس والوطن حسابًا لما صرنا إلى ما صرنا إليه اليوم.

ظننا وإن بعض الظن إثم أن رجوع رئيس جهاز الأمن إلى مهامه نفسها سيتعلم ويتعظ ممَّا ظُلم سابقًا، وأن يتحرك ضمير الظالم وأن يقاوم الظالم الأكبر.

ولكن الأحرار والشرفاء هم فقط من ينتصرون لكل

مظلـوم ويقاومـون كل ظـالم.. والدفـاع عـن المظلومـين ليـس مسألة سهلة، بل هو جهاد شاق ومضن.

أريد أن انتصر لكل مظلوم.

الظـالم لا يسـتطيع أن يحتمـل كلمـة حـق انتصـار المظلـوم، الظـالم يريـد أن يكمـم كل الأفـواه حتـى لا يسـمع كلمـة دفـاع، بـل هـو يريـد أن يغلـق كل العيـون حتـى لا تـرى مـا جنـاه.

الظـالم يريـد أن يمحـو ذاكـرة كل إنسـان حتـى ينسـى اسـم ضحيتـه.. الطاغيـة لا يريـد أن يعـرف أن المظلـوم عـلى قيـد الحيـاة.

بعـض الظالمـين يجـدون لـذة ومتعـة في أن يعرفـوا مـاذا جـرى للمظلـوم الـذي ظلمـه.. هـل هـو يبكـي وينتحـب؟ هـل خـرب بيتـه فعـلًا؟ هـل طلبـت زوجتـه الطـلاق؟

الظـالم يسـعد عندمـا يـرى المظلـوم يتلـوَّى مـن الألم والعـذاب.

يغضـب ويشـقى الظـالم إذا عـرف أن ضحيتـه لا يـزال صامـدًا، ولم يركـع طالبًـا الرحمـة، ولم يسـجد راجيًـا الغفـران.

الظـالم يتباهـى إذا جـاءه خطـاب مـن مسـجون ظلمـه ويبكي ويتـأوه، وكان يقـرأ خطـاب المظلـوم لأخصاصـه وأعوانه.

الظـالم يتغنـى بعـذاب المظلـوم، ويطـرب لصراخـه، وينتـشي لدموعـه وأهاتـه.

الظـالم كالجـزار الـذي ذبـح ضحيتـه ووقـف ينظـر في لـذة إلى

ذبيحته والدم ينزف منها.

الظالم لا يندم أبدًا على الظلم الذي ارتكبه، خاصة وهو ما زال يحمل «الكرباج» وسيف سلطته المسلَّط على رقاب الضعفاء.

الظالم يعتبر هذه الجرائم هي المفاخرة التي يتباهى بها.. الظالم كلما ارتفع صوت أنين المظلوم تمايل من الطرب كأنه يسمع غناء مطرب محبوب له.

واحذر أن تلتمس من الظالم الرحمة، فإنك تحرضه بذلك على أن يمضي في تعذيبك وإذلالك.

واحذر أن تبكي طالبًا أن ينهي الظالم عذابك، فالجلاد لن يتوقف إلا عندما يذوق طعم السياط.

لا أعرف ظالمًا تحرك ضميره وهو في الحكم والسلطان، فيوم يحمل السيف «الكرباج» في يده ينسى أن هناك شيئًا اسمه الضمير. فهو يعتبر الظلم عدلًا.. والرحمة ضعفًا.. وأن القسوة حنان.. والجبروت حزم.. وهو يعتبر «الكرباج» صولجانًا، والمشنقة علمًا يرفعه.

يتحرك ضمير الظالم.. عندما يذوق طعم السياط التي ضرب بها مظاليمه، وعندما يتذوق عتمة الزنازين التي حبس فيها مساجينه. ورئيس الجهاز العائد مرة اخرى، عندما ذاق الظلم ومراراته وأُطلِق سراحه طلب في لقاء تلفزيوني له من كل الذين ظلمهم أن يغفروا له وطلب منهم السماح، وهذا اعتراف بظلمه للمظلومين والذين

ذاقوا أبشع صنوف العذاب والقهر في بيوت الأشباح.

وعودته إلى المهمة نفسها والوظيفة كانت فرصة يعلمها الله وحده، لا ليمارس هوايته وظلمه على الضعفاء والمسحوقين، بل ليحق الحق لأهله.. حتى يستطيع أن يغتسل ويتوضأ من كل الظلم الذي اعترف به.. ونهاية الظالم محتومة ومرتبطة بقدرة الله عليه، ولكن يا للأسف كنا أمام إنسان لا يتعلم من التاريخ؛ عاد للظلم مرة أخرى، بل وأبشع حتى أعمى الله بصيرته.

بعد هذه المفاصلة الشهيرة حدد عماد هو ومجموعة كبيرة من الانتهازيين في التنظيم أن يكونوا تبع القصر وليس المنشية، وهذا ما سُمِّي به من كان تبع الترابي، يسمى تبع المنشية، وهو الحي الذي به منزل الشيخ الترابي، ومن كان تبع البشير كان يسمى جماعة القصر، وهو القصر الجمهوري، وكانوا يقتسمون ويقسمون الدولة بينهم، وبقية الشعب ضيوف وأجانب، ولا أحد مجبر أو مضطرون إلى أن يشرحوا للشعب ما الذي يجري، والشعب صامت ويراقب.

سمعت فكرة من أديب عربي عن استطلاع للرأي لشخصين منتخبين للرئاسة، ونفذت هذه الفكرة فيمن حولي وهم أقرباء وأصدقاء:

المنتخب الأول: شخص سيوفر لك لقمة العيش والسكن والتعليم والصحة، لكن كل من تسول له

نفسه انتقاد هذا الرئيس سيُنفَخ في الشارع العام، ويعلق كالذبيحة، ويصعق بالكهرباء في المناطق الحساسة، ويدق المسمار على رأسه حتى الموت، بعد تشويه سمعته وفصله من العمل وتشريد أسرته.

المنتخب الثاني: شخص سيوفر لك الحرية والديمقراطية، وتتعرف المال الذي يدخره لنفسه، وحتى أمراضه المزمنة وطريقة علاجه وحجم عقاراته إن وجدت، وإن لم يعجبك يمكن تغييره بالانتخابات ويوفر لك حرية التعبير، ومن ينتقده وينتقد حكومته يجد الاحترام حتى لو غضب منك لا يستطيع أن يمسك بك، لأن الذي بينك وبينه القانون.

أيهما ستختار من الاثنين؟

بكل صراحة، اندهشت حين أجريت استطلاعًا صغيرًا، لقد وجدت الغالبية من استطلعتهم، ومنهم مثقفون ومتعلمون، أنهم مع الاختيار الأول، فلم أتركهم وذكرت لهم هذا المثال:

هناك زوجة يضربها زوجها بشكل يومي ويهينها أمام الجيران، لأنه مصاب بوسواس قهري، فلم تستطع الاستمرار مع هذا الزوج، فتركت المنزل وذهبت إلى بيت أبيها.

زوجة أخرى تسكن في بيت فخم ويضربها زوجها كما الأخرى ويهينها أمام الجيران لنفس الأسباب، ولكن هذا الرجل كان بعد كل حادثة ضرب وإهانة يقدم لها هدية؛

فستان فخم أو أسورة من الذهب أو عشاء فاخر في فندق، وهي ترضى بهذه الهدية وحياتها تستمر بشكل طبيعي.

الفرق بين الزوجتين: الزوجة الأولى رفضت الإهانة وذهبت تاركة البيت. الزوجة الثانية رفضت الإهانة، لكنها رفضت أن تهان وتذل وتهان كرامتها بالمجان (ببلاش) يعني ليس لديها مشكلة أن تتحمل الإهانة لكن (بالفلوس).

فالذين يوافقون بالرئيس الأول كما هذه السيدة التي لا تقبل الإهانة مجانًا، تقبلها بالفلوس، فأنتم ليس لديكم مشكلة بأن تهان آدميتكم ورجولتكم بالفلوس والأكل والشرب.

ولم يسأل أحد ماذا ستفعل هذه الزوجة التي تقبل الإهانة بالمال إذا فقد زوجها المال بسبب خسارته لأي سبب بعد أن تهان كرامتها أمام الناس؟ ستكون فقدت كرامتها ولقمة العيش.

إذًا، الذي يتنازل عن حريته من أجل لقمة العيش سيأتي يومًا يفقد فيه لقمة العيش والحرية.

لو أجريت هذا الاستطلاع في دولة أوروبية، أي شخص مهما كانت درجة تعليمه سيتركك قبل أن تكمل الجملة وسيذهب، ولن تجد من يستمع لك حتى نهاية الحديث بمجرد أن تمس كرامته وحريته الشخصية وحرية التعبير وحريته في اختيار من يحكمه أو من يمثله في البرلمان..

وحسموا هذه القضية منذ عقود، وأنهم يرفضون الاستبداد من حيث المبدأ ولا ينتظرون نتائجه. لأن المستبد مهما أنجز في النهاية يقود البلاد إلى الهاوية؛ انظروا إلى المستبدين الذين حكموا ماذا كانت النتيجة بعد وفاتهم أو مغادرتهم الحكم، طبعًا الانهيار لكل الإنجازات بداية من صدام والقذافي والنميري وأخيرًا البشير.

الإسلاميون هم من لا يرفضون الاستبداد من حيث المبدأ، ويتواءمون معه وينتظرون نتيجته، فإن ساءت النتيجة ثاروا ضده. هذا ما فعله المؤتمر الشعبي أو الترابي الذي ثار ضد البشير، فكان من الممكن أن يتواءم مع استبداده إن لم تسؤ نتيجته، لأنه هو من أتى به وانقلب على نظام ديمقراطي فيه تبادل سلمي للسلطة، فمن يقتنع بأنه يعارض من أجل إعادة الحرية والديمقراطية والعدالة كما كان يردد في ندواته ولقاءاته بعد ما وقعت المفاصلة.

فعندما دخل عماد الجامعة بدأ في التعرف بأكبر شخصيات التنظيم، ورُشِّح في اتحاد الجامعة وتعرف أصدقاءً جددًا في التنظيم، وفي الوقت نفسه زملاء معه في الكلية نفسها، وكان التقاهم في وقت الدفاع الشعبي، وتعرف مجموعة من هم معه في التنظيم، وأخذ دورات تدريبية على استخدام كثير من الأسلحة وهو في المعسكر لكي يؤهَّل في قيادة اتحاد الطلاب، وفعلًا هذا الذي حصل. وفي أول انتخابات فاز عماد وأصبح قياديًّا في اتحاد طلاب الجامعة وخطيبًا في التنظيم، وفصاحة لسانه وأوقات التدريب هي

التـي أهلتـه لهـذه المكانـة.

وحتـى النسـاء يُجنَّـدن، وكان ذلـك يجـري مـن خـلال الطرق السـابقة نفسـها مـع ضـم العضـو الجديـدة لقسـم الأخـوات (أخـوات نسـيبة)، وذلـك قبـل اسـتيلائهم عـلى السـلطة في يوليـو 1989، ولم يكـن لهـنَّ تراتبيـة تنظيميـة، موضحًـا أن الفتاة أو السـيدة التـي تنضـم للجبهـة تبـدأ بدراسـة برنامـج تربـوي يشـمل قـراءة بعـض الكتـب مثـل ريـاض الجنـة، وكتـب السـيرة.

ولم تكـن لديهـم رغبـة في إدمـاج المـرأة تنظيميًّـا، بسـبب الحساسـيات الأمنيـة، خشـية تعرضهـا للاعتقـال، لكـن بعـد يوليـو 1989 أعطـت الجماعـة دورًا لأخـوات نسـيبة كـما يحلـو لهـم مناداتهـن، وفصلـت الجماعـة قسـمها إداريًّـا في تنظيـم شـبه مسـتقل، مـع منحهـن التراتبيـة التنظيميـة بـدءًا مـن منتسـبة حتـى مجاهـدة.

زواج عماد من سهام

وتعرف عماد زوجته سهام، الطالبة بالسنة الأولى كلية الآداب، جامعة الخرطوم، وهي بنت قطب كبير في حزب المؤتمر الوطني الحاكم، وكان عماد يعرف والدها قبل أن يعرفها، وجمعته به ظروف العمل الحزبي والأمني، وخلال الاجتماعات التي كانت بين الأقطاب أو اللجنة الأمنية السياسية، وكان والدها معجبًا بعماد أيما إعجاب، لفصاحته و(إيمانه الذي يتظاهر به)، ولَمَّا عرف عماد بأن بنت هذا القطب الكبير طالبة في كلية الآداب بدأ يمارس هوايته؛ الخداع والتملق، حتى ينال رضاه، وبالفعل بسحره في الكلام استطاع أن يصل إلى سهام، وبطبيعة البنت أو المرأة تحب الرجل الذي يحظى بمكانة بين الناس، وعماد له مكانته بين الناس، سواء هذه المكانة مستمدة من دوره في الحزب وفي الاتحاد للجامعة أو عند والدها أو من شخصيته، أما غير ذلك ستكون حظوظ الرجل قليلة لامتلاك قلب المرأة. وبدأ يعطيها شيئًا من الاهتمام حتى تملكها تمامًا كما تملك قلب والدها بعد أكثر من زيارة في البيت. ثم عرض والدها عليه الزواج منها، ودون أن يتكلف عماد بأي خسارة، فكانت جميع مراسم الزواج على والد سهام.

وتـزوج عـماد مـن سـهام وهـي في السـنة قبـل الأخـيرة.

الكثـير مـن زمـلاء عـماد يتحدثـون بأنـه لم يتخـرج حتـى فـارق الجامعـة، وتـم تفرغـه مـن قبـل التنظيـم للعمـل في جهـاز الأمـن بعـد عودتـه مـن الجهـاد ومـن رحلـة الاستشـفاء، والنظـام المتبـع في الجامعـات كان الطـلاب الذيـن يأتـون مـن الجهـاد لهـم درجـات خاصـة في الامتحانـات، وبعضهـم كان لا يجلـس للامتحـان، ولذلـك البعـض يرجـح أن عـماد تخـرج في الجامعـة ونـال شـهادة البكالوريـوس مـن كليـة القانـون مـن غـير أن يجلـس للامتحانـات، ولقـد بنيـت هـذه الافتراضيـة مـن الخطـاب المتـداول في الوسـائط الـذي يوضـح الفسـاد في التعليـم، إذ وُفِّقـت أوضـاع طـلاب مـن حـزب المؤتمـر الوطني، بعضهـم نجـح في الامتحانـات دون أن يجلـس لهـا.

بعـد المفاصلـة أصبـح الأشـقاء الأعـداء، ونشـط عـماد في الإيقـاع بأشـقائه في حـزب المؤتمـر الشـعبي، وكان لا يهمـه شـقيق أو غـيره؛ كل الـذي يهمـه أن يكـون كبـيرًا في نظـر أوليـاء نعمتـه، وبهـذا العمـل الخسـيس أصبـح عـماد موضـع ثقـة لرئيـس جهـاز الأمـن، وفي الحقيقـة جميعهـم عرفـوا كيـف يوقعـون بأشـقائهم، وكان مسـاعد عـماد في هـذه المهمـة صديقـه دفـع الله، الـذي رافقـه في رحلـة استشـفائه، واُسـتوعِب عـماد بصـورة رسـمية بجهـاز الأمـن برتبـة مـلازم.

وجهاز الأمن والمخابرات في عهـد المؤتمـر الوطنـي أصبـح جهازًا عقائديًّـا يدين جميع أعضائه بعقيدة حزب سياسي معروف، هـو حـزب المؤتمـر الوطنـي، ولا صفة للقومية أو لعقيدة الدولة أو الوطن.

ونظـرًا إلى افتقـار الجهاز إلى عنـصر الاحترافيـة الـذي يميز جميـع أجهزة المخابرات حول العالم، يمكـن اسـتيعاب عـماد وأمثالـه بأقـل المؤهـلات العسـكرية، وينتهـج الجهاز أسلوبًـا استبداديًّـا يقوم على الترهيب وممارسة العنف وارتكاب الجرائم لإرهاب المعارضين، وهـذا هـو أسـلوب أجهـزة الأمـن في الأنظمة الشمولية ويصعب اجتثاثها.

ولذلك فالجهاز غير مؤهل أخلاقيًّا في عمله، يعتبر الجهـاز الوحيـد في العـالم يمتلك قوة مسلحة بهـا الآلاف من المقاتلين، وهـذه عوامـل تجعلـه مهـددًا للدولة وللمواطن. وهـذا الجهـاز عندمـا أُسِّـس لكـي يحافـظ عـلى الحـزب الحاكـم وليـس الحفاظ عـلى الوطـن، ومـن ثَـمَّ سـيكون خطـرًا عـلى أي حكومـة تـأتي بعـد نظـام الإنقـاذ الفاسـد، بـل لجميـع الحكومـات، وسـيكون حجـر عثـرة لأهـداف أي حكومـة قادمـة، وكـون أكـبر إمبراطوريـة تجاريـة يديرهـا الفاسـدون والحراميـة، وأصبـح مرتعًـا للفسـاد، بـل ويحتكـر السلع الضرورية والإسـتراتيجية.

وعمـل عـماد في رئاسـة الجهـاز أكثـر مـن 18 سـنة حتـى وصـل إلى رتبـة عقيـد، وكان يتنقـل بـين الوحـدات وأحيانًـا يُبتعَـث لمهمـة خاصـة، ومعظـم ابتعاثـه ليـس لـشيء سـوى للتجسـس عـلى المعارضـين، وأصبـح جدولـه في زحـام دائـمًا، وبطبيعـة رجـال الأمـن عندمـا يسـكنون في حـي يحاولـون عـدم الاحتـكاك بأهـل وسـكان الحـي بقـدر الإمـكان.

ذهـب عـماد النقيـب بجهـاز الأمـن إلى دارفـور في بدايـة التمـرد الـذي كان في 21 يوليـو 2001، كأول اختبـار حقيقـي

لعماد في مهمة حساسة، وذلك لتعرُّف المجموعة التي اجتمعت من الزغاوة والفور في أبو قمرة وأقسموا اليمين فوق القرآن بالعمل معًا لمواجهة الهجمات التي ترعاها الحكومة على قراهم، وبدأت حملات شرسة في ذلك الوقت لاعتقالات واسعة شملت أعيان القبائل وزعماءها في دارفور، وكان التنكيل بهم في المعتقلات ظنًّا منهم أن هذا سيخمد ثورتهم المطالبية، لكنه زادها اشتعالًا، وكان العمل العسكري الأول لحركات دارفور التي أقسمت على القرآن هو هجوم ناجح على حامية للجيش في 25 فبراير 2002. عرفت الحكومة بالحركة المتمردة الموحدة منذ أن وقع هجوم على مخفر شرطة في غولو في يونيو 2002.

إن الإبادة الجماعية انطلقت في 26 فبراير 2003، عندما زعمت مجموعة تسمي نفسها «تحرير دارفور» علنًا أنها شنت هجومًا على غولو، المقر الرئيسي لمنطقة جبل مرة. مر هذا الهجوم، ومع ذلك اندلع الصراع عندما هاجم المتمردون مخافر الشرطة، نقاط الجيش والقوافل العسكرية، وردَّت الحكومة بهجوم بري وجوي ضخم على معقل المتمردين في جبل مرة. وكانت حملة تطهير عرقي ضد سكان دارفور غير العرب. أدت الحملة إلى مقتل مئات الآلاف من المدنيين، واتُّهِم بسببها الرئيس السوداني المخلوع البشير بارتكاب إبادة جماعية، جرائم حرب.

وكانت مذكرة دولية قد صدرت في 4 مارس 2009، من قبل المدعي العام بمحكمة الجنايات الدولية في لاهاي،

باعتقال الرئيس السوداني عمر البشير، لاتهامه بارتكاب جرائم حرب في إقليم دارفور السوداني. وقد وجهت للرئيس السوداني سبع تهم، منها ارتكاب جرائم ضد الإنسانية، والترحيل القسري، والتعذيب. وتوجد تهمتان من جرائم الحرب، منها: قيادة الهجمات ضد السكان المدنيين، وبدأت حملة ضد كل من نادى أو أيَّد تسليم البشير للجنائية، وأولهم خصمهم التاريخي الشيخ الترابي، واعتقل عدة مرات بسبب تأييده هذه المحكمة، وطالب البشير بتسليم نفسه، وبسبب هذه المذكرة ذاق الشعب السوداني الويل والحصار الاقتصادي، وتدهور كل شيء. وكذلك هنالك من عارض، وخرجت مظاهرات للتنديد بهذه المذكرة. واتُّهِم كل مؤيد لهذه المذكرة بأنه خائن لوطنه، بل وللإسلام!! فمن الذي يرفض تسليم البشير وجميع المجرمين للجنائية الدولية؟ وهذا يقودنا إلى هذا السؤال أيضًا؛ ما هي مواصفات المواطن الوطني الذي تريده الأنظمة الديكتاتورية الفاشية؟ هو ذلك المواطن الذي تُسحَق آدميته وكرامته في بلاده، لكنه يرفض الحديث عن مأساته مع الأجانب!!

افترض أن ما حدث في دارفور حدث لك؛ ذهبت إلى العمل خارج قريتك أو اغتربت، وعند عودتك لم تجد القرية لأنها نسفت من الوجود، وأن والدتك التي كانت تنتظر عودتك ماتت محروقة، وأن زوجتك اغتصبوها ثم قتلوها، ولم تجد إلا القليل من أقربائك في معسكرات للاجئين.

أو تخيل أن مجموعة ملثمين قد اقتحموا منزلك، وأخذوا ابنك وضربوه ضربًا مبرحًا أمامك، ولم يكتفوا بذلك، بل أخذوه لجهة غير معلومة، وفي أول زيارة لك وجدته منهارًا من جرَّاء الحبس الانفرادي، ورأيت على جسده إصابات كثيرة من الضرب والتعذيب، وأنك مثل أهالي المعتقلين، أصبحت تنتظر أمام السجن بالساعات وتتعرض إلى الإذلال والإهانات حتى ترى ابنك في زيارة لا تستغرق دقائق، ثم بعد أيام تسلمته جثة هامدة، وحررت له شهادة وفاة أنه مات بالتسمم لتناوله وجبة فاسدة، أو مات نتيجة إصابته بالملاريا.

ثم افترض أن صحفيًّا أجنبيًّا طلب منك أن تحكي له تفاصيل قضية وفاة والدتك واغتصاب زوجتك، لينشرها في صحيفة أو قناة عالمية، وسيطالب المجتمع الدولي بمحاكمة من أمر وعذب ابنك وأذله ثم قتله؛ طبعًا ستوافق دون أي تردد، وستدعوه إلى منزلك وتحكي له بالتفاصيل. هل تقبل أن يصف أحد ما فعلته بأنه مناف للوطنية؟ من حقك أن تنشر قضية ابنك العادلة في أي مكان، وتبحث للعدالة أينما كانت.

لكن الأنظمة الديكتاتورية الفاشية تروج له، لأنه مهما كنت مسحوقًا ومظلومًا لا يجوز لك أن تشكو حاكم بلادك لأجنبي، سواء كان في صحيفة أجنبية أو منظمة عدلية، لأن ذلك يعتبر خيانة للوطن، وبأن كل ما يدور في الداخل من ظلم وقهر واعتقال وتعذيب تعتبر مشكلات داخلية لا

يجوز لهم مناقشتها خارج الوطن!!

وقد يسأل أحد وهل البشير مجرم، وكيف يتحمل المسؤولية؟ نعم إنه مجرم ويتحمل كامل المسؤولية، لأن كل الذي يحدث من انتهاكات وتجاوزات هي مسؤولية الرئيس الديكتاتور المستبد، لأنه يستطيع أن يوقفها بكلمة واحدة أو بإشارة فقط.. ومعروف في الأنظمة الديكتاتورية إذا غضب الرئيس على مواطن معناه تجر عليك المصائب وتنتهك حقوقك والهلاك المحقق، لأن سلطته مطلقة، وإذا غضب غضبت له أجهزة الدولة جميعًا المدنية والقضائية والأمنية، وهبَّت فورًا للتنكيل بالمغضوب عليهم ويشيع القتل والتعذيب تحت سمعه وبصره.

في البلاد الديمقراطية تكون سلطة رئيس الدولة مقيدة بالقانون، ومن ثَمَّ فإن غضبه على أي شخص لن يضيره أبدًا ما دام لم يخالف القانون.

في الذهن الرافض لتسليم البشير للجنائية يكون دائمًا الولاء للقبيلة وللزعيم أقوى بكثير من مفاهيم حقوق الإنسان والمواطنة. ولا يعيرون أدنى اهتمام للعدل ولحقوق الإنسان مثل هذه الذهنية لن تجدها أبدًا في الدول الديمقراطية، أنهم يحبون أوطانهم مثلنا وأكثر لكن يؤمنون أن الوطنية يجب أن تكون في حدود العدل والحق وحقوق الإنسان كما تستوجب فضح جرائم السلطة.

تذكرون الذين فضحوا جرائم الجيش الأمريكي في

معتقل أبو غريب بالعراق، كانوا صحفيين أمريكيين ولم يتهمهم أحد بالخيانة أو أنهم عملاء للسفارات، بل نالوا تقديرًا واسعًا من الأمريكيين لشجاعتهم ودفاعهم عن الحق.. ومن واجبنا أن نقدر أبناء الوطن الشجعان المخلصين الذين فضحوا جرائم عصابة البشير وطالبوا بمحاكمتهم.

ما الذي يضطر أكثر من ألف ناشط أجنبي من محبي السلام من السويد وفرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا والنمسا إلى أن يأتوا إلى العراق في 2003 ليعلنوا تضامنهم مع الشعب العراقي ضد الحرب، ويتوزعوا مجموعات ليكونوا دروعًا بشرية تحمي المستشفيات ومحطات الكهرباء والمدارس والجامعات وجميع المرافق الحيوية، وهذا العدد نفسه ومن بلدان أوروبية مختلفة جاءوا إلى غزة متحدين البحار وقساوة اليهود لكسر الحصار ضد الفلسطينيين، ويُقبَض عليهم في وسط البحر، ويُعذَّبون ويُسفَّرون إلى بلدانهم ثم يعيدون الكرّة مرات ومرات؟ إنه الضمير الإنساني يا سادة. هؤلاء الناشطون الأجانب مثقفون ومرتاحون، يتمتعون بحياة كريمة في بلادهم، لكنهم يتمتعون بضمير إنساني جعلهم يرفضون أن يقفوا متفرجين على قتل ملايين العراقيين الأبرياء وحصار الفلسطينيين.

وما الذي يجعل ملايين يخرجون في أمريكا ضد قرارات ترامب، الذي يمنع بعض المسلمين من دول عدة من الدخول إلى أمريكا، خرجوا رافضين هذه القرارات، هؤلاء الملايين معظمهم مسيحيون، وغالبية من مُنِعوا هم من

المسلمين؛ إنه الضمير الإنساني يا سادة.

إن الدفاع عن الظلم والقهر هو أمر إنساني، وإنسانيتنا يجب أن تسبق أي انتماء، لأن الديانات جميعًا جاءت لتدافع عن القيم الإنسانية الكبرى: العدل والحق والحرية.

نحن أمام رؤيتين متناقضتين؛ الأولى التي تدافع عن الحق والتسامح دون تمييز، وبصرف النظر عن الدين والعرق والجنس، والثانية متطرفة تكره المختلفين عنها وتحتقرهم ولا تعترف بحقوقهم، حتى من أبناء الوطن الواحد، وأصحاب الدين الواحد، ولا تغضب إن قُتِلوا.

الإسلاميون الذين لم يغضبوا لقتل أبناء الوطن في دارفور أو في أي بقعة من أرض الوطن، إنهم يمثلون الرؤية الثانية، فهؤلاء أنفسهم غضبوا بشدة عندما قتلت إسرائيل الفلسطينيين، وحينما هاجمت أمريكا طالبان خرجوا في مظاهرات، وصلوا مع شيخ عبد الحي صلاة الغائب على بن لادن، لكن عندما قتلت حكومة البشير أهل دارفور العُزَّل وأطفال جبال النوبة لم يخرجوا في مظاهرة واحدة، وخلت خطبهم من أي إدانة لجرائم حكومة البشير.

هكذا هم غالبية الإسلاميين لا يدافعون عن حقوق الإنسان كقيمة مستقلة يدافعون عنها أحيانًا ويتجاهلونها أحيانًا حسب الظروف. أعلى درجات الإنسانية أن تدافع عن حقوق الإنسان بصرف النظر عمَّن انتهكها والمؤمن حق يجب أن يدافع عن ضحايا القمع أينما كانوا، وبصرف

النظـر عـن انتماءاتهـم.

وبعـد الثـورة أتمنـى أن يعـم السـلام الحقيقـي بـدلًا مـن تقسـيم إلى مجموعـات والتفـاوض كل مجموعـة لوحدهـا بقصـد أضعافهـا وتشـتيت الجهـود واحـذروا السـلام الهتلـري.

لا أبحـث لكبـير القتلـة هتلـر هنـا عـن مـبررات.. لكـن أحـذِّر مـن نوعيـة السـلام التـي تُبنـى عـلى معاهـدات فاسـدة بحيـث يتـم فيهـا الرشـاوى بالمـال والمناصـب أو مغشوشـة، إنـك تضحـك عـلى الطـرف الآخـر إمـا بالخديعـة وإمـا بالابتـزاز، لأنـك تمتلـك القـوة، لأن مـا قامـت بـه الإنقـاذ كان يـدل عـلى أن السـلام، كان يحمـل الاثنـين، دخـل فيـه المـال الفاسـد وأيضًـا كان فيـه الابتـزاز وفـرض الأمـر الواقـع، فـإن لم نتعـظ سـنكون شـعبًا لا يتعلـم مـن التاريـخ، وهتلـر الـذي خلقـه بهـذه الوحشـية المعاهـدات الظالمـة التـي وقعـت عليـه وعـلى شـعبه، والشـعب الألمـاني كان راضيًـا بالديكتاتـور، لأنـه ظُلِـم وأراد أن ينتـصر لكرامتـه، ووجـد في هتلـر هـذا المـشروع.

في 30 أبريـل عـام 1945 كان موعـد رحيـل هتلـر، وهـو القاتـل الأكـبر في تاريـخ البشريـة.. كان ضحيـة معاهـدة سـلام فاسـدة. وللدقـة أقـول معاهـدة إنهـاء حـرب.

معاهـدة فرسـاي التـي أنهـت الحـرب العالميـة الأولى هـي التـي أسسـت لاشـتعال الثانيـة.. اقتطعـت ٪12 مـن سـكان ألمانيـا.. وحـوالي ٪15 مـن إنتاجهـا الزراعـي و٪10 مـن صناعتهـا و٪74 مـن إنتاجهـا مـن خـام الحديـد.

ونصت على ألا يزيد الجيش الألماني على مائة ألف جندي.. وألزمت ألمانيا بدفع تعويضات هائلة.

اقتطعت المعاهدة ممرًا آمنًا لبولندا قسم ألمانيا إلى قسمين ليصل إلى بحر البلطيق.. حاول هتلر أن يعيد صياغة المعاهدة بعد وصوله للحكم، لكن تعنت فرنسا وأمريكا كان غاية في الاستفزاز له ولشعبه.

طرح نظرية الأجواء الحيوية ورفضتها دول الحلفاء.. فبدأ رحلته مع الغضب الكبير هو والشعب الألماني من خلفه، واجتاح النمسا ومن بعدها بولندا.

وتدخلت إنجلترا بإنذار صممته أمريكا حتى يرفضه هتلر.. تسارعت وتيرة الصدام بعد عربدة اليابانيين في الصين، ومساعدة ألمانيا وإيطاليا فرانكو في الانقلاب في إسبانيا واشتعلت الحرب.

لو اعتبرنا بدايتها عام 36 باجتياح اليابان لمنشوريا، فيكون عدد قتلاها حتى يوم انتحار هتلر 82 مليون إنسان كانوا يمثلون 2.5٪ من سكان الأرض.. وحطمت حضارة إنسانية قدرت بـ 20٪ من الإنجاز البشري.

أحيانًا بعض السلام المبني على غش يصنع القتلة بامتياز.

فلنحذر من سلام وهمي واتفاقيات ظالمة قد تكون بداية اشتعال المنطقة.

قال هتلر في أشد أقواله ذكاءً: «كنت قادرًا على قتل جميع اليهود على الأرض، لكن تركت لكم بعضهم لتعرفوا سبب قتلهم».

في يوم من الأيام، بعد أن انتهى عماد من عمله في وحدة جهاز الأمن، أراد أن يعود إلى البيت بسرعة، لأن أسرته المكونة من زوجة وابن وابنة يريدون الذهاب إلى البيت الكبير هو بيت أسرة الزوجة، ثم بعد ذلك عليهم الذهاب إلى مناسبة عائلية، وهذا عُرف في العوائل؛ يجتمعون في البيت الكبير، ثم ينطلقون إلى المكان الذي يريدون الذهاب إليه إن كان مسرحًا أو حديقة أو مناسبة عائلية ودائمًا العوائل تجتمع في البيت الكبير، وعلى الأقل يستطيع عماد في هذا اليوم أن يرى فيها ابنه محمد الذي كبر وبنته الوحيدة «فطومة» - سماها على اسم والدته الحاجة فاطمة المتوفاة، تيمُّنًا بها - فلم ينجب بعدها، وعانت زوجته كثيرًا المشكلات الصحية التي حرمتها من الإنجاب مرة أخرى، وفطومة أنجبها في بريطانيا بعد خمسة عشر عامًا من إنجاب محمد البكر، الذي ولد بعد الزواج بثلاث سنوات، وبعد أن نصحه أحد المشايخ في الحزب بأن يعالج زوجته في بريطانيا، وفي الوقت نفسه لو أنجبت في بريطانيا ستحصل على الجواز البريطاني للمولود. ولقد سافر إلى بريطانيا كمبتعث للسفارة أو ملحق أمني، وما أسهل تحايلهم على القوانين من أجل الفساد. وبدأ يسافر أوقات متقطعة أكثر من مرة، وكان يجري الكشف والعلاج لزوجته

على حساب السفارة، وهذا كان الهدف الأساسي لوجوده في لندن، ثم في النهاية أنجبت زوجته بنتًا سماها فاطمة في لندن، وهذا ما يجعلنا نسأل هؤلاء الشيوخ بصرف النظر عن تحريضهم على الفساد، لماذا يدعون للخلافة الإسلامية ويهربون إلى أوروبا بلد العلمانية؟!

هؤلاء الشيوخ يعلمون أن الرسول (عليه الصلاة والسلام) لم يحدد شكل نظام الحكم (ملكي.. جمهوري.. عسكري... إلخ) وأن الرسول (عليه الصلاة والسلام) امتدح نظام حكم النجاشي الحبشي، وكان نظامًا غير إسلامي أقرب إلى العلماني، وتحدث عن عدله ونزاهة نظامه، وأمر أصحابه بالهجرة إليه حين اشتد عليهم الحصار من ذوي القربى في الجزيرة العربية.

إذًا الدين ليس لديه شكل للدولة ولم يأمرنا بذلك، ومن ثَمَّ يجري التعامل معه كقضية اجتماعية وثقافية وحديثي هنا عن جميع الأديان.

المسيحيون في أوروبا لم يخرجوا في مظاهرات يطالبون بعودة عهد ذبح معتنقي المذهب البروتستانتي في الشوارع، كما حدث في عام 1570، يقتلون الناس بشوارع باريس بلا رحمة على خلفية مذهبهم، وبأوامر مباشرة من ملك فرنسا تشارل التاسع. ولا الإيطاليين يريدون الرجوع إلى الدولة الرومانية عهد القهر والظلام.

ما عدا المسلمين، يريدون إرجاع الخلافة الإسلامية!!

وفي الحقيقة لا توجد خلافة إسلامية ضاعت حتى يتم إرجاعها، ومن الإنصاف أن نذكر هنا أن الإسلام الحقيقي في عهد الخلفاء الراشدين قدَّم نموذجًا ديمقراطيًّا عظيمًا قبل أوروبا بقرون طويلة. ويكفي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يختر خليفة له، ليترك للمسلمين حرية اختيار من يحكمهم، بل إن ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة كانوا منتخبين من الناس وخاضعين تمامًا للرقابة الشعبية، كما يحدث اليوم في أفضل بلد ديمقراطي. وأبو بكر الصديق رضى الله عنه، أول حاكم في الإسلام، ما إن تولى السلطة حتى خطب الخطبة العظيمة قائلا: «أيها الناس، لقد وليت عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعنوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم» على أن ديمقراطية الإسلام الأول قد انتهت سريعًا لتبدأ عصور طويلة من الاستبداد والتخلف، وظهر في هذه الحقبة فقهاء السلطان.

وأصبحت الدولة الإسلامية لا تختلف عن باقي إمبراطوريات أوروبا؛ دسائس ومكائد وحروب. كدولة أبو العباس السفاح الذي قتل الآلاف، والأمين والمأمون ابني هارون الرشيد، وما صاحب عهدهما من انحطاط للأخلاق، والحجاج بن يوسف الذي قتل المئات من العلماء. وكانت أوروبا أيضًا تعيش في عصر الظلام، وكان البابا في ذلك الوقت جريجوري الثالث عشر الذي بارك مذابح باريس وقتلوا في يوم واحد 3 آلاف مسيحي بأبشع

صورة للقتل، فكانوا يفتحون بطون الحوامل ويفجرون الأدمغة، واستمر هذا الحال 20 عامًا، وأمر بإطلاق أجراس الكنائس وإشعال النيران احتفالًا بقتل الخوارج. ووصل به الاعتزاز لدرجة أنه صك عمله تذكاريه تخليدًا لذكرى المذبحة كتب عليها «قتل الخوارج» تقديرًا لإنجازات المذهب الكاثوليكي.

الأوروبيون تعلموا من التاريخ وتجاوزوا هذه المآسي، وسادت دولة القانون، وأصبحت لديهم برلمانات تحكم ومنظمات حقوق الإنسان تراقب أعمال الحكومات.

أما شيوخ المسلمين لم يتعلموا من التاريخ أبدًا، بل يقاتلون للرجوع إلى تاريخ السبي والجزية.

وهؤلاء الشيوخ أنفسهم حينما يشتد عليهم بطش حكامهم يهربون إلى أوروبا، وحينما يشتد عليهم المرض يستشفون في مستشفياتها، وحين يريدون لأبنائهم التعليم الجيد يرشدونهم إلى جامعاتها، ويجدون العدل والحماية ويتجنسون بجنسياتها، وهي لا تحكم بالخلافة الإسلامية التي يريدون أن يحكموننا بها نحن!! وهذا سبب تطورها وتقدمها، فلماذا تريدون لنا التخلف إذن؟ وهل الإسلام نزل لكي يشقي الناس؟! إنه أمر فعلًا محير. ابحثوا في كتب التراث ونقحوها وسيعود للدين مجده وعزه.

وأوروبا لم تتقدم إلا بعد أن فصلوا الدين عن مؤسسات الدولة، وأذكر هذه الواقعة في نهاية التسعينيات في القاهرة

التقيت صديقًا وزميل دراسة من جنوب السودان (كاثوليكي)، وفي يوم كنت قريبًا من مجمع الكنائس العالمي في حي الزمالك، يعمل فيه موظف وطلب مني الدخول، وفي لحظة وجودي وهم يؤدون الصلاة رأيت الكثيرين منهم تنهمر دموعهم من فرط التأثر وهم يستمعون لتراتيل يلقيها عليهم القس. بعد نهاية الصلاة سألت صديقي (سبت) عن هذا البكاء وهذه الدموع فكان رده:

كما يحدث للمسلمين في صلاة التراويح، إنهم يتأثرون بسماع القرآن من الإمام، فكذلك المسيحيين عند سماعهم التراتيل. وانداح في الحديث وحكى لي عن معجزات العذراء، وأنها كانت تظهر كل ليلة كطيف يحلق في السماء، وكان الناس يتوافدون إلى الكنيسة وكانت تشفى المرضى، ولكنها اختفت بسبب قلة الإيمان. وهو يحكي بهذا مؤمن بما يقول.

تذكرت هذه الواقعة عندما كنت أستمع لأحد «المجاهدين» المتعصبين وهو يحكي على قناة فضائية عن معجزات حدثت في حرب الجنوب، وكانت الملائكة تظللهم وهم يخوضون الحرب، وتذكرت إسحاق فضل الله وحكاياته المعروفة، مثل هذه القصص يعتقد فيها الشخص تمامًا عندما تسيطر العواطف الدينية عليه، ومثل هذه المعجزات وحكاويها لا تعرف النقاش ولا تخضع للمنطق، ولا باستطاعتك استنكارها أمامه.

عواطفك الدينية الجياشة لا دخل للآخرين بها، اؤمن

بـما تؤمـن واعتقـد فيـما تعتقـد، لكنهـا تصبـح مصيبـة عندمـا تـأتي بهـا إلى الحكـم وتمارسـها مـن داخـل أروقـة الدولـة، وتـأتي في اجتـماع منقـول عـلى قنـوات فضائيـة وتتحـدث عـن المعجـزات، وأنـك رأيـت الرسـول (عليـه الصـلاة والسـلام) وهـو يمسـك بأحـد رجـال النظـام الفاسـدين ويـوصي بـأن السـودان عـلى يديـه سـيرى الخـير، وتُهلّـل النـاس وتُكـبّر، فهـذا اسـتغلال للمشـاعر الدينيـة للشـعب. وكذلـك عندمـا يـزور الرئيـس أو مسـؤول أحـد رجـال الطـرق الصوفيـة المعروفـين، ويعلـن ذلـك الشـيخ دعمـه للرئيـس؛ سـتدفع الآلاف وربـما الملايـين مـن المريديـن إلى تبنـي موقـف شـيخهم، لأن عواطفهـم الدينيـة لا تسـمح لهـم بنقـده أو مخالفتـه، عـلى الرغـم مـن أن سـلطته روحيـة فقـط، ومثـل هـذا الاسـتغلال للعاطفـة الدينيـة تمارسـه الأحـزاب الطائفيـة، ومـن ثَـمَّ تعـارض فصـل الديـن عـن الدولـة بشـدة، لأنـه ضـد مصالحهـا، ووجودهـا مرتبـط باسـتغلال العاطفـة الدينيـة للنـاس.

والعاطفـة الدينيـة لـدى الشـباب جعلتهـم يعتقـدون في تاريـخ كاذب بـأن الخلافـة الإسـلامية نزعهـا الله مـن المسـلمين بعـد أن ابتعـدوا عـن الديـن، ولكنـك لـن تسـتطيع أن تقنـع أي شـاب إسـلامي متشـدد بهـذه الحقيقـة، لأنـه مبنـي عـلى العواطـف الدينيـة التـي تجعلهـم متعصبـين.

الـدول الغربيـة تقدمـت وتطـورت بعـد فصـل الديـن عـن الدولـة، وأصبـح الديـن يـمارس في المعابـد وفي الكنائـس، وعندمـا يأتـون إلى البرلمـان يمارسـون السياسـة ويدرسـون

الواقع من غير عواطف دينية، ولم يأتِ أحد متعصب إلى البرلمان ويحدثهم عن أن الذي يحدث من فقر وتدهور اقتصادي بسبب ابتعادنا عن الله، ويريد من ذلك إبعاد الرئيس وحزبه عن جريمة الفساد هي التي تسببت في هذا التدهور وليس بسبب بعدنا عن الله.

إن لم نفصل الدين عن الدولة، أي عن مؤسسات الدولة، ونمارسه فقط في الجوامع والمعابد لن نتقدم إطلاقًا.

ومن زحمة العمل يذهب عماد في الصباح باكرًا كل يوم ويترك أولاده نائمين، ويأتي متأخرًا، وأحيانًا لا يأتي إلا في اليوم التالي، خاصة إذا كان هناك حالة استنفار. وفي خلال ثورة ديسمبر 2019 ازداد العبء عليه وعلى جهاز الأمن خاصة، وعلى الحكومة عامة وكتائبها وأمنها الشعبي، لأن من كان يدير الثورة ويحركها هو تجمع المهنيين، وبأشخاص غير معروفين لدى أجهزة الأمن، فكانوا يطاردون أشباحًا، فكانت إدارة للثورة أذهلت آلة القمع عكس ما حدث في هبة سبتمبر 2013 التي قتل فيها أكثر من مائتين من خيرة الشبان والشابات، ثم استطاعوا قمعها أما في ثورة ديسمبر كانت قيادتها صححت أخطاء سبتمبر، وفي المقابل استخدم جهاز الأمن الكثير من الحيل بعد أن نفذ ما لديه من قمع وقتل، وأخيرًا لجأ إلى السلاح النفسي، والذي يسمى في علم النفس «التأطير» من أجل إحباط الثوار، وهذا الأسلوب استخدمه الجيش الأمريكي في أثناء معركة غزو العراق عام 2003.

روج الإعلام الغربي ومعه الإعلام العربي الموالي لهم.. بأن المعركة الرئيسية ستكون في مطار بغداد ومن يكسبها سيكسب الحرب!!

طبعًا من يتذكر الأحداث يذكر جيدًا كيف كان الشغل الشاغل للإعلام الترويج لمعركة المطار، وبدأ النظام العراقي يحشد قواه بالمطار وتهيأ الجميع لملحمة المطار.

لم يكلف أحد عناء نفسه ليسأل وما هو المطار أصلًا وما أهمية موقع المطار؟ وبالأخص أن المطار هو مدني ومعطل أساسًا منذ غزو الكويت عام 1991! موقعه ليس بذي أهمية.

إذًا لماذا تم الترويج بشدة لمعركة المطار؟

لتجميع أكبر عدد من القوات العراقية في مكان واحد لتسهيل الإبادة. لكن الهدف الآخر الأهم هو العامل النفسي، لأنهم حشوا أذهان الجنود بأن هزيمة المطار تعني خسارة المعركة. وبالفعل عند خسارة معركة المطار أنهار الجيش العراقي بسرعة قياسية. وانهارت بغداد وسقط نظام صدام حسين.

هذا الأسلوب نفسه أُتبِع في معركة حلب في حرب سوريا.

هذا واحد من الأساليب للسيطرة على العقل يسمى «أسلوب التأطير»، هذا الأسلوب يجعل عقلك ينحصر في اختيارات محددة فرضت عليك لا إراديًّا، ومنعت عقلك

مـن البحـث عـن جميـع الاختيـارات المتاحـة.. البعـض يـمارس ذلــك دون إدراك، والبعــض يفعلــه بهندســة وذكاء!! والقــوة الحقيقيــة عندمــا نــمارس هــذا الأســلوب بقصــد، أي عندمــا أجعلـك تختـار مـا أريـد أنـا دون أن تشـعر أنـت.. فمثـلًا عندمـا يُحـدَّد يـوم، وهـذا اليـوم يتفـق الجميـع عـلى أنـه يـوم الزحـف إلى القـصر الجمهـوري لتسـليم مذكـرة للمخلـوع، ويبـدأ جهـاز الأمـن يسـاعد في هـذا الزخـم الإعلامـي ويكثـف مـن الدعايـة بواسـطة عملائهـا، ولكنـه يعـدُّ العـدَّة بعـدم وصـول الثـوار إلى القـصر، لكـن لم يسـأل أحـد مـا فائـدة القـصر لـو تـم الوصـول إليـه؟ هـل سـنقابل البشـير فيـه هـل سـيتم تسـلم المذكـرة؟ طبعًـا لا، قطعًـا، ولكــن بمجـرد فشــل الوصــول إلى القــصر ســتنهار معنويــات الثــوار، ويبــدأ الحديــث فيــما بينهــم عــن تجمـع المهنيـين، ولمـاذا هـذه الخطـة وتبـدأ الأسـئلة.

إذًا «التأطـير» هـو خيـار وهمـي ليـس مبنيًّـا عـلى واقـع.. فهـذا أسـلوب قـوي في قيـادة الآخريـن والـرأي العـام مـن خـلال وضـع خيـارات لا وجـود لهـا، وتسـتخدمها الأجهـزة الأمنيــة لتحطيــم وانهيــار معنويــات الطــرف الآخــر.

ولقـد انتبـه تجمـع المهنيـين للمعلومـة التـي يـراد منهـا سـلب العقـول والقـرار، وهـذا واحـد مـن أهـم أسـباب نجاحهـا، وكانـت ثـورة ديسـمبر عظيمـة، ولكـن شـابتها بعـض الأخطاء، ولا بُـدَّ أن أتحـدث عـن أخطائهـا عـلى عجالـة:

بعـد هـذه الثـورة المعجـزة ونجاحهـا، وكعـادة الثـورات في العـالم لا بُـدَّ أن تظهـر قـوى مضـادة للثـورة، لكـن مهـما فعلـت

هـذه القـوى فـإن السـودان بعـد ثـورة ديسـمبر لـن يعـود أبـدًا كـما كان قبلهـا. لقـد أقـام هـؤلاء قائـدو هـذه الثـورة المضـادة (حـكام النظـام السـابق) أسـوأ ماكينـة قمـع في تاريـخ السـودان الحديـث. إن مجـرد مشـاركتك في وقفـة احتجاجيـة سـلمية بضـع دقائـق يـؤدي إلى إلقائـك في السـجن سـنوات. وصـل عـدد المعتقلـين في سـجون الإنقـاذ الألـوف يتعرضـون للـضرب والتعذيـب حتـى المـوت. في ظـل هـذا القمـع الرهيب لم يسـتكن الشـعب، خاصـة الشـبان والبنـات، واسـتطاعوا إسـقاط أعتـى نظـام فـاشي دمـوي ميليشـياوي في العـالم، وكانـوا يعتقـدون أنهـم يسـتطيعون أن يفعلـوا في السـودانيين مـا يشـاءون. فجـأة انكـسر حاجـز الخـوف وانتـشرت المظاهـرات. كان مطلبهـم الوحيـد أن تتنحـى الجبهـة الإسـلامية العريضـة مـن الحكـم. ونجحـت الثـورة وصاحبتهـا أخطـاء فادحـة، فـلا بُـدَّ مـن اسـتيعاب الأخطـاء التـي وقفـت في تحقيـق أهدافهـا.

أولًا: الخطـأ الأول لهـذه الثـورة أن الذيـن ناضلـوا وأتـوا بالثـورة حتـى خلعـوا النظـام البائـد الفـاشي تعففـوا مـن السـلطة بتحريـض مـن الأحـزاب، فوقعـت السـلطة في أيـدي قـوى أخـرى، فهـي لم تكـن مضـادة للثـورة، وإنـما بحسـن نيـة أصبحـوا يسـبحون في فلكهـا. التاريـخ يعلمنـا أن الثـورة - مهـما كانـت قوتهـا - إذا لم تصـل إلى السـلطة، فإنهـا تنتحـر عمليًّـا، لأنهـا لـن تصـل إلى أهدافهـا أبـدًا، بـل سـتتعرض غالبًـا إلى القمـع والتنكيـل. الثـورة يجـب أن تصـل إلى السـلطة.

ثانيًـا: مـن قبـل قيـام الثـورة، كان هنالـك مجموعـة محبطـة

تصدِّر الإحباط للناس، ونعتوا الثورة بأوصاف لا تليق بها، ولسان حالهم كان يقول أنتم تحلمون.. كيف ستجبرون الإنقاذ على التنحي في ظل دعم الجيش والشرطة والأجهزة الأمنية ودول إقليمية؟ هؤلاء المنهزمون معنويًّا خطر على أي ثورة؛ هؤلاء يتأرجحون دائمًا في مواقفهم، لا تستطيع تصنيفهم بأنهم داعمون للثورة، ولا هم ثورة مضادة مخفية (جماعة الهبوط الناعم)، فهم مجموعة من الشخصيات العامة تحركهم مطامعهم الشخصية والحزبية، وغيرهم من الأحزاب التقليدية والإسلامية تجدهم يكتبون جملًا مطاطة تصلح للثورة وتصلح لإجهاضها. وأرسلوا واردهم، ولقد تسلل إلى الصفوف الأولى من الثورة بعد نجاحها، وأدى وجودهم إلى مشكلات كبيرة دفع ثمنها الثوار. من فض للاعتصام ومات فيه خيرة شباب الثورة، ثم إلى حالة عدم محاسبة النظام السابق وغيرها من إخفاقات والقبول بالحلول الوسطى التي أهلكت الثورة.

ثالثا: خلال الثورة سمعنا لأول مرة عن «أيقونة الثورة»، فلا لتقديس الأشخاص، وكما كانوا يقدسون الديكتاتور باعتباره «رمز الوطن». إن أيقونات الثورة الذين اعتبرناهم كان خطأ، وسيكون ثمنه غاليًّا مع الأسف. كان من يتكلم عن هذا الموضوع يقال إنه حاسد هؤلاء الأيقونات، لأن بعض هؤلاء الأيقونات قد ينقلب لأي سبب على الثورة نتيجة ضغوط أمنية من الثورة المضادة، أو نتيجة ضعف مادي أو ابتزاز بتسجيلات لأفلام لأوضاع مخلَّة، أو أي

سبب سينقلب مرغمًا على أهداف الثورة، وسيكون التأثير سلبي ف الثوار والناس، وستصبح أفعالهم السيئة محسوبة على الثورة، فكان يجب أن تكون أيقونة الثورة هي أهدافها وليس الأشخاص.

رابعا: ماذا تعني الثورة؟ الثورة تعني تغييرًا جذريًّا يهدم النظام القديم ليبني نظامًا جديدًا. وكان عدد كبير من وزراء حكومة الثورة وحتى رئيس الوزراء لا يدرون أنهم وزراء ثورة لحقبة انتقالية، وليسوا وزراء حقبة ديمقراطية؛ شرعيتهم من الثورة ومن الشارع، فلم تحظ في تاريخ السودان حكومة بشعبية كما حظيت بها هذه الحكومة، وعلى الرغم من ذلك كانت السلحفائية هي شيمتها.

كان عليهم أن يدركوا أن الصراع مع النظام البائد صراع وجود في المقام الأول، فهم يدافعون عن أملاكهم المسروقة ورفاهيتهم، والشرفاء الثوار يدافعون عن الحرية ودولة القانون، ويعلمون أن وصول الثوار إلى السلطة ونجاحها تعني محاكمتهم على المال المنهوب وعن الجرائم التي اغترفوها، وسيسعون ولن يهدأوا حتى فشل هذه المرحلة الانتقالية. يُعلِّمنا التاريخ أن الثورة لن تنهزم على الإطلاق، قد تتعطل نتائجها وتتراجع، لكن في النهاية النصر حليف الثورة.

علَّمنا التاريخ بأن الثورات لا تموت ولا تفشل، قد تتعطل وقد تتأخر نتائجها، لكنها لن تموت أبدًا، وعندما تقوم الثورة تحاربها القوى المضادة، ويبدو لك كأن الثورة

انتهت أو فشلت، لكنها تستمر على الرغم من القمع والقتل والتنكيل ثم تنتصر في النهاية.

لقد مارس النظام الفاشي قمعًا غير مسبوق؛ ألقى بالآلاف في السجون، ومارس القتل والتعذيب في المعتقلات، وعندما اكتمل الوعي اشتعلت الثورة، ويستحيل على من تملك وعي الثورة أن يتخلى عنه.

الثورة ليست مظاهرات وإضرابات، وإنما الثورة وعي جديد يكتسبه أفراد المجتمع.

الثورة تعني أن الظلم الذي تواءمت معه طويلًا لم يعد بإمكانك أن تقبله.

الثورة تعني أن تطمح إلى العدل والحرية، وتريد أن تكون مواطنًا وليس أحد الرعايا.

الثورة تعني أنك تريد أن تعاملك السلطة باحترام.

الثورة تعني حقك في تعليم مجاني جيد وعلاج مجاني محترم ومسكن يليق بالآدميين.

الثورة تعني أنك تختار رئيس الدولة، وتعرف مقدار ثروته، وكيف كونها، وتريد أن تحاسبه على سياساته، وعلى إنفاقه من المال العام الذي هو مالك الذي تدفعه من ضرائبك.

الثورة تعني أنك تريد أن يتوقف الاعتقال والتعذيب، وأن يحاكم كل من قتل الثوار وكل من تورط في التعذيب.

الثـورة تعنـي أن يتسـاوى الجميـع أمـام القانـون، فـلا يوجـد في البلـد «جهـات سـيادية» ولا أسـياد وعبيـد.

الثـورة تعنـي أن يتسـاوى الجميـع في فـرص العمـل، فيكـون الترقـي وفقًـا للجـدارة وليـس وفقًـا لعلاقتـك بالنظـام.

فالثـورة ليسـت لحظـة عابـرة، وإنـما حقبـة ممتـدة بـدأت ولن تنتهـي إلا بتحقيـق أهدافها.

الثـورة تعنـي أنهـا تنتمـي إلى المسـتقبل، والقـوة المعاديـة لهـا تنتمـي إلى المـاضي، ويسـتحيل عـلى المـاضي أن يهـزم المسـتقبل.

الثورة تعني عندما تحدث يتغير كل شيء إلى الأبد.

الثـورة علمتنـا مـن أهـم أهدافها أن نسـترجع جيـدًا الدروس أن الجيـش السـوداني يجـب أن يتفـرغ لأداء واجبـه في حمايـة الوطـن الثـورة، علمتنـا أن بعـض الإسـلاميين قـوة رجعيـة لا يمكـن الوثـوق بهـا في عمـل ثـوري، ومسـتعدون دائـمًا لخيانـة الثـورة مـن أجـل السـلطة التـي يتوهمـون أنهـا سـتحقق حلمهـم في اسـتعادة الخلافـة الإسـلامية.

الثـورة علمتنـا أن المواطـن البسـيط تهمـه في المقـام الأول احتياجاتـه اليوميـة، ونتيجـة لعقـود مـن الاسـتبداد والتجهيـل فهـو لا يـرى العلاقـة بـين الحريـة ولقمـة العيـش، وبالفعـل لما تعـذرت لقمـة العيـش انضـم إلى الثـورة تلقائيـا.

أعـداء الثـورة سـينفقون مليـارات الجنيهـات عـلى إحـداث الفـوضى والضائقـة المعيشـية ومواقـع إلكترونيـة، لتشـويه

سمعة الثوريين ووصمهم بالعمالة والخيانة والكفر، حتى يكره السودانيون الثورة التي قامت من أجلهم. شهداء وشباب الثورة أنبل وأشجع السودانيين وأكثرهم وعيًا، معركة الثورة ليست سهلة، لكنَّ انتصارها مؤكد وفقًا لقوانين التاريخ.

وقبل أن يغادر عماد مكتبه مرَّ على زميله دفع الله، المعروف بلقب «أبو الدفاع»، زميله ودفعته وصديق عمره منذ أن كانا طالبين في المرحلة الثانوية، ثم في جامعة الخرطوم وذهبا إلى «الجهاد» معًا، وكانوا دفعة تعتبر الصفوة للتنظيم، إذ مات منهم مجموعة في «جهاد» الجنوب، وبعد المفاصلة بين الفصيلين بدأ عدد الدفعة (الصفوة) في تناقص؛ هذا بعد أن افترقوا إلى مجموعتين، وما سمي بالمفاصلة عماد وصديقه دفع الله، وآخرون اختاروا المشاركة في الحكم والانتفاع، أي الذين غدروا بشيخهم المؤسس للجماعة ومؤدلجها.

والتحقا بجهاز أمن الدولة السياسي في سنة واحدة بعد أن تلقوا تدريبًا عسكريًّا واستخباراتيًّا في كيفية قمع الثورات والتظاهرات الطلابية، وتخرج عماد برتبة ملازم، ومثل عماد يكرهون الثورة والتغيير، لأنهم منتفعون، وأي تغيير سيعيدهم إلى عامة الشعب ويساويهم بالناس وسيسحب كل امتيازاتهم، وهذا ما لا يرضون به مهما كلَّف الأمر. والتاريخ يعلمنا أن لكل ثورة في العالم كارهين، وأعداء الثورة عملوا المستحيل لإجهاض وهدم الثورة؛ سلكوا

المتاح وتبين لهم أنهم ضلوا الطريق، وسلكوا غير المتاح للضرر بالشعب.

فمن هم أعداء الثورة والشعب؟

تجار الدين المستفيدون من عطايا الديكتاتور بعد منحه الفتاوى التي تمنع وتحرم الخروج عليه - ومنهم من أجاز له قتل المتظاهرين - كوَّنوا ثروات ضخمة وامتلكوا القنوات الفضائية والعمارات والسيارات الفخمة، وتزوجوا ثلاث ورباع، فنجاح الثورة يعني فضح دجلهم على الناس باسم الدين، ومصيرهم المحاكم والسؤال عن مصدر هذه الثروات، لذلك تجدهم الآن يكفِّرون الثوار والوزراء ويطعنون في وطنيتهم ويسمونهم «أولاد السفارات».

كبار رجال المؤتمر الوطني من وزراء وما يعرف بالدستوريين بنوا الفلل الفخمة، وأولادهم درسوا في أفخم الجامعات، وحصلوا على الوظائف الرفيعة وكونوا ثروات واستثمارات وحسابات بنكية خارجية هؤلاء. لا تتعب نفسك معهم في إقناعهم بالتغيير، لأنه لا يمكن أن يقف ضد مصالحه، وسيدفعون عمرهم لكيلا تنجح هذه الثورة، ونجاحها يعني محاكمتهم ومصادرة ثرواتهم وحبسهم بتهمة السرقة.

بعض من ضباط الجيش والشرطة وجهاز الأمن والمخابرات يكرهون الثورة، لأنها ستنتقص من ساديتهم وتجعلهم مواطنين عاديين خاضعين للمساءلة عن ثرواتهم

التـي كونوهـا، ونجـاح الثـورة سـيزيل عنهـم هـذا التمييـز الـذي تمتعـوا بـه ثلاثـين سـنة، ومنحـوا بـه أراضي ومـزارع وكونـوا ثـروات، والثـورة تعنـي عـدم التمييـز والمحاسـبة.

الصحفيـون كتبـة النظـام العاطلـون في المواهـب كوَّنـوا ثـروات ضخمـة مـن التطبيـل للاسـتبداد وللديكتاتـور، والنظام الفـاشي هـو مـن أعطاهـم فرصـة الظهـور عـلى الرغـم مـن ضعفهـم الأكاديمـي والمهنـي، يكرهـون الثـورة والحريـة لأنهـا سـتفضح إمكاناتهـم المهنيـة. هـؤلاء كانـوا يرافقـون الرئيـس الفاسـد في حلـه وترحالـه، هـؤلاء لا يقفـون مـع الثـورة ولا يمكـن أن يعلنـوا وقوفهـم مـع النظـام البائـد، لكنهـم يعملـون عـلى تعطيـل الثـورة بالإشـاعات والأخبـار المفبركة والاسـتهزاء بالثـورة والثـوار.

المسـتفيدون بطريقـة غـير مبـاشرة مـن النظـام البائـد أسـاتذة جامعـات عيَّنـوا أبناءهـم وأقربائهـم في التدريـس، وطوروهـم عـلى الرغـم مـن ضعـف مسـتواهم العلمـي، وكانـت لهـم الأفضليـة للمنـح الدراسـية. وكذلـك التجـار ممـن يعيشـون عـلى موائـد الـوزراء وبقايـا موائـد عائلـة البشـير، ومُنِحـوا القـروض مـن دون شروط وفوائـد، ويتحصلـون عـلى العطاءات والعمـولات الضخمـة؛ نجـاح الثـورة يعنـي تدمـير مملكتهـم التـي بنوهـا بـمال المـرضى والمسـاكين. هـؤلاء مسـتعدون أن يـردوا الجميـل لنظامهـم البائـد ويدفعـون بسـخاء لتدمـير الاقتصـاد وتجويـع الشـعب وإضعـاف الحكومـة، واهمـين بـأن التاريـخ سـيعود إلى الـوراء.

الموظفون الصغار، هؤلاء الفاسدون أمراض صغيرة، لكنها خطيرة وتجدهم معروفون بين الناس برواتبهم الهزيلة، لكنهم يمتلكون أفخم المنازل وأفضل السيارات هؤلاء هم من عطلوا الثورة لتغلغلهم وسط الطبقة المتوسطة لا يريدون تغيير النظام، لأن النظام الفاسد لا يسألهم عن ثرواتهم تجدهم أكثر عداوة على الثورة البسطاء الفقراء المخمومين من قبل تجار الدين تعلموا اليأس من التغيير قبل الثورة، قالوا لهم إن التغيير يعني الفوضى، يعني ليبيا يعني سوريا، وبعد نجاح الثورة قالوا لهم إنها مؤامرة أمريكية إسرائيلية تستهدف الدين والعقيدة والثوار كفار ليس هدفهم محاربة الفساد إنهم يستهدفون الدين، فيجب محاربتهم وهؤلاء جاهزون للجهاد ضد الشعب.

جميع هؤلاء كارهو الثورة، إنهم يتجاهلون تجربة ثلاثين سنة تعذيب اعتقالات سرقة تدمير حتى وصلنا إلى الحضيض في كل مناحي الحياة. وخوفهم بعد نجاح الثورة من أن تطالهم العدالة ويسألوا من أين لكم هذه الثروات الضخمة، والتاريخ يعلمنا أن كارهي الثورات أعداء الحرية يقفون على أطلال الماضي من الحياة بينما الثورة لا تنهزم أبدًا لأنها تقف على شواطئ المستقبل.

وهنالك فئة مهمة جدًّا كانت كارهة للثورة وهم «ديناصورات» السياسة السودانية، أو كبار الساسة السودانيين، ولولا عزيمة الشباب لأحبطت هذه الثورة المعجزة، لأنهم كانوا يواجهون عدوين النظام القمعي

بكل آلاته القاتلة، ثم هؤلاء الديناصورات ما الأسباب التي جعلتهم يكرهون هذه الثورة الشبابية؟

كنت كثير التنقل في بداية حياتي العملية خارج السودان، والتي بدأت في عام 2000 وتقريبًا عملت في أكثر من أربع شركات، وهذه من الأشياء التي أكسبتني معرفة وتجارب كانت مفيدة بالنسبة إليَّ، وكان هذا التنقل بين الشركات في وقت ما قبل الزواج وتحمل المسؤولية، ولكن الزواج كما يقولون يعلم الإنسان الجبن والخوف، وأيضًا كانت الظروف الاقتصادية ممتازة في دول الخليج تسمح لك بالتنقل والاختيار بين الشركات، وفي وقت الصبا هذا، ومن ضمن هذه التجارب تعاقدت مع شركة المرتبات فيها مغرية جدًّا، وكل الموظفين حريصون على التمسك بها، وحتى ساعات العمل فيها مريحة، بحيث تسمح لك بالعمل وقت المساء، وكنت بعد الساعة الرابعة أعمل في مجلة والأمور تسير معي على نحو جيد، لذلك كنت حريصًا جدًّا على التمسك بها، لكن فيها مشكلة واحدة، ألا وهي صاحب الشركة يتميز بأنه مستبد جدًّا ويهين الموظفين، حتى لو دون مناسبة، ويستمتع بهذه الإهانة، وبالذات كبار الموظفين، يتعمد أن يقدم إليهم الإهانة أمام مرؤوسيهم (الحمد لله أنني كنت من الصغار) وكانت لهم مبررات مختلفة لتقبل هذه الإهانة أمامنا مثلًا يقولون: «صاحب الشركة أصبح رجلًا كبيرًا ومفروض نتحمله شوية». والشركة كلها تخشاه وتكرهه، لكن حرصًا على

الامتيازات صابرين عليه وعلى غطرسته وقلة أدبه ومن ثَمَّ ينافقونه.

وفي مرة من المرات عُيِّن مدير مالي وإداري سوداني، رجل مؤهل جدًّا وله خبرة كبيرة ويحمل شهادة زمالة المحاسبين من لندن، وبصمته ظهرت في الشركة من أول أسبوع، ووضع نظامًا جديدًا للشركة، وصاحب الشركة كان مبسوطًا منه جدًّا، وفي أحد الاجتماعات اجتمع صاحب الشركة مع مديري الإدارات خلال الاجتماع، الكل يكون في حالة توتر حتى اليوم التالي، ونكون في انتظار النتيجة على أحرِّ من الجمر، وبعد أن انجلى الأمر في اليوم التالي، وكانت هذه المرة مع المدير السوداني الجديد.. يبدو أنه لم يتحمل الإهانة من هذا المستبد ورد عليه بنفس أسلوبه. ولم يتوان في تقديم استقالته في لحظتها أمام المجتمعين وترك الاجتماع غاضبًا، ولم نره في الشركة حتى فارقناها، وحزنَّا لفراق هذا المدير، والكل كان يتعجب من هذا الرجل، خاصة مديري الإدارات الأخرى الذين كانوا معه في الاجتماع نفسه. وكانوا مندهشين كيف يترك هذه الامتيازات وهذا الوضع من أجل كلمات (بسيطة)؟

ولقد فُصِلتُ أنا ومعي زميلي الآخر سوداني بعد مدة من استقالة مدير الإدارة، على الرغم من أننا لم نقابل صاحب الشركة ولم نلتقه إلا نادرًا، وكنا ضحايا لهذا المتغطرس، وهذا يدل على إن المستبد الذي يقول له لا ويقاومه، والذي يمشي (بجنب الحيط) جميعهم واحد،

يعني المسالم والمصادم سيئان في نظره.

الذي دفعني لسرد هذه الواقعة هو ما صرح به السيد الصادق المهدي من قبل، والذي هوَّن فيها من ثورة الشباب ببعض التعابير التي أثارت جدلًا واسعًا في وقتها، ثم أطبق عليها الشيخ السنوسي القيادي بحزب المؤتمر الشعبي، إذ قال في لقاء صحفي لشباب المؤتمر الشعبي: «بقاء النظام أفضل ألف مرة من حكم اليسار»، الكل اندهش إلا شيخ السنوسي من هذا الافتراء على الثورة، في حين هذه الثورة ثورة شباب لم يتبنها حزب لا يسار ولا يمين، وكل المدن انتفضت وكل القرى خرجت، لكن السنوسي ودياصورات السياسة عمومًا يكرهون هذه الثورة، هؤلاء جميعهم يكرهون الثورة على الرغم من اختلاف أحزابهم؛ ليس لأن متبنيها الشيوعيون أو البعثيون، وهم يدركون ذلك تمامًا وعلى علم تام أن قيادتها هم الشباب، ولكن يكرهونها لسببين:

أولًا: منهم من يكرهها حفاظًا وخوفًا على مصالحه وامتيازاته التي سيفقدها، لأنهم بزوال هذا النظام ستزول كل امتيازاته ومكانته، وليس السنوسي وحده يكره الثورة؛ الآن كل «شياب» السياسة السودانية المشاركين في الحكومة سيكرهون هذه الثورة وسيتمسكون بهذا النظام، على الرغم من استبداده كما فعل مديرو الشركة؛ كانوا حريصين على الوظيفة على الرغم من كرههم صاحب الشركة وقلة أدبه وغطرسته.

ثانيًا: هذا السبب الأخير هو الأهم؛ يكرهونها لأنها ثورة شباب رفضوا حكم الاستبداد الذي تواءموا هم (الديناصورات) معه ثلاثين عامًا، وهذه الثورة أحرجتهم أمام أنفسهم، لأن جيلهم عاش بمفهوم أن التعايش مع الظالم سينجيهم من شره، واقترحوا التعابير الخائبة مثل: «الهبوط الناعم»، وجاء هذا الجيل الذي أكد لهم أن الإذعان والسكوت عن الحق والتذلل للظالم لا يمنع الظلم أبدًا، بل في كثير يضاعفه، وقالوا للكبار إن خيار الإذعان للظلم لم يكن خيارًا أفضل، فكان من الممكن أن تثوروا ضد هذا النظام. فمثلًا شهيد سقط في حي بري، رجل جالس في بيته وفي أمان وسط أولاده، أتته طلقة قتلته، فهذا الرجل لم يقتل في الشارع، ومصير هذا الرجل قد يحدث لأي سوداني، بل إنه حدث بالفعل، فالذين قتلتهم عصابات ليبيا في الصحراء هربًا من هذا الواقع أو الذين ماتوا وسط البحار للبحث عن عمل في حمامات أوروبا وسقطت بهم مراكب الموت، فكل هؤلاء كانوا مواطنين مسالمين وماتوا في طريق البحث عن وضع أفضل هربًا من هذا النظام، وحتى الذين ماتوا بسبب السرطانات لتناولهم المواد المغشوشة المسرطنة لفساد نظام الرقابة، والذين يموتون يوميًّا في حوادث الطرق لرداءة تصميمها يعتبرون ضحايا هذا النظام الفاسد. وأدرك الشباب أن عواقب الشجاعة ليست أبدًا أسوأ من عواقب الخوف، وأن الوسيلة الوحيدة للنجاة من الحاكم الظالم المستبدّ هي

مواجهته وليس الإذعان إليه.

هذا الجيل أدرك أخيرًا الدرس الذي لم يفهمه هؤلاء (الديناصورات)، وهذا الجيل أفضل الأجيال التي مرت على السودان منذ الاستقلال، وسيبني سودانًا جديدًا يسع الجميع.

بعد الثورة شهدت الساحة السياسية في السودان صراعًا عنيفًا بين الثوريين الذين يطالبون بالعدل والحرية، ويريدون تطبيق الشعارات المستلهمة من ثورة ديسمبر المجيدة، بالمقابل هناك أنصار النظام القديم الذين يدافعون عن الأوضاع الظالمة، ويساندون المستبد ويدافعون عنه ويدعونهم في مناسباتهم الخاصة ليحمي مصالحهم، ويحاولون جاهدين أن يكره الشعب ثورته المجيدة حتى يمهدوا للمستبد أن يتسلط علينا من جديد. وبين الثوريين وأنصار النظام السابق هناك الغالبية من السودانيين يمثلون نموذج الإنسان البسيط الذي يعيش في قوقعته ولا يعبأ إطلاقًا بالشؤون العامة، وهو يتعايش مع الاستبداد ويتقبل الظلم ما دام يحدث للآخرين. ويعلمنا التاريخ أن لا أحدًا ينجو من الظلم في دولة ظالمة. مهما انعزل الإنسان وتفرغ لشؤونه الشخصية فإن الدولة الظالمة سوف تؤذيه إن لم يكن اليوم فغدًا.

وها هي قصة عمنا «حمزة» البسيط المسالم، المنعزل في قوقعته، وهو عامل في أحد المصالح الحكومية، ويعمل في أوقات فراغه أو بعد الدوام الرسمي في أحد المزارع، وذات

يـوم يتعـرَّض للظلـم، وكان ذلـك حـين مـرض ابنـه الوحيـد ولم يجـد لـه علاجًـا في المستشـفى الحكومـي في المدينـة، ونصحـوه مـن كانـوا هنالـك بـأن لا يسـتنزف الوقـت؛ لا يوجـد عـلاج لابنـك إلا في المستشـفيات الخاصـة وباهظـة التكاليـف، وحمـل ابنـه الوحيـد عـلى كتفـه وجسـمه النحيـل الـذي لا يقـوى عـلى هـذا المجهـود، وذهـب إلى جميـع المستشـفيات الخاصـة فلـم تقبلـه، بـل ولم تهتـم بـه لأنـه لا يملـك المـال الـذي يودعـه قبـل بـدأ إجـراءات العمليـة، فلجـأ إلى شـباب «الحلـة»، ولكـن تأخـر الوقـت حـين بـدأوا جمـع المـال، وذهبـوا إلى ابنـه وجـدوه مـات عـلى حجـر أمـه خـارج سـور المستشـفى الضخـم الخاص الـذي يملكـه أحـد أنصـار النظـام، وفقـد ابنـه الوحيـد روحـه.

عـاد عمنـا «حمـزة» إلى البيـت حزينًـا ومقهـورًا لمـن يشـكو ولمـن ينتحـب، ومـرض عمنـا «حمـزة» مرضًـا شـديدًا ومـات مـن القهـر، لأنـه حـين مـرض ابنـه عندئـذ لم تسـعفه الدولـة، بـل أسـهمت في ظلمـه.

لدينـا في السـودان الآلاف مـن نمـوذج طبـق الأصـل مـن عمنـا «حمـزة» – رحمـه الله – الـذي يفضـل أكل العيـش وتعليـم أبنائـه عـلى العـدل والحريـة. ولا يهمـه أي شيء في العـالم، وهـو عـلى أتـم اسـتعداد لتجاهـل الظلـم مـا دام المظلومـون بعيديـن عنـه وعـن أسرتـه.

عمنـا حمـزة رأى الظلمـة يعبثـون بمـوارد الدولـة، وكل مـن يتكلـم عـن الظلـم كان النظـام يضعـه في السـجن، وألقـى النظـام الفـاشي عـشرات الشرفـاء في السـجون. الذيـن يدافعـون

عـن حقـوق عمنـا «حمـزة» في العـلاج وفي التعليـم وفي العيـش الكريـم، فلـم يهتـم بهـم وكتـم شـهادة الحـق وصـدق إعـلام «الكيـزان» بـأن هـؤلاء الشـباب لـن يحدثـوا أي تغيـير، وحـين طالبـت نقابـة عمنـا حمـزة في المصلحـة بالعصيـان لإسـقاط النظـام كان مـن أول الرافضـين، حتـى يظـل في مأمـن مـن بطـش أجهـزة الأمـن وظلمهـا.. وتعلـم عمنـا «حمـزة» الـدرس، لكـن بعـد فـات الأوان وسـلم روحـه إلى بارئهـا، وأنـه لا أحـد ينجـو مـن الظلـم في الدولـة الظالمـة، فـإن لم يكـن اليـوم فغـدًا.

والأنسـب لحمايتـك مـن الظلـم تسـعى مـع الآخريـن في تأسـيس دولـة العـدل والقانـون ومقاومـة الظلـم، حتـى إن لم يصيبـك ويكـون عـلى مبـدأ وليـس عـلى المصالـح.

وبمناسـبة تنقـلاتي للعمـل بـين الـشركات في تلـك المـدة، كانـت أجمـل مـدة عملـت فيهـا في دار للنـشر، لذلـك لا يمكـن أن أفـوت هـذه الفرصـة ولا أذكرهـا. وصاحـب الشركـة لبناني، وسـمحت لي الفرصـة أن أزور لبنـان، وكانـت بعـد الحـروب الداميـة المدمـرة كانـت زيـارة عمـل.. فعرفـت المتعـة والجـمال والطـرب والجبـال والغابـات في عنفـوان الشـباب.

لقـد كانـت أجمـل بـلاد العـرب.. البـلاد صغـيرة والنـاس في غايـة الأدب والـذوق والنظافـة والأناقـة، لا أحـد يعـرف عـدد المطاعـم الصغـيرة في لبنـان، وعـلى الرغـم مـن أنهـا صغـيرة فهـي جميلـة أنيقـة. أمـا الخدمـات التـي يقدمونهـا لصاحـب الجلالـة السـائح فـلا أول لهـا ولا آخـر.

اللبنانيون كلامهم حلو ومجاملون، ويعطونك إحساسًا أنهم أصحاب الذوق.

قد تختلف مع التاجر اللبناني أو المحامي أو الطبيب عندما تلتقي به، وقد يناقشك ساعة على مائة ليرة، ولكنه في الليل يدعوك إلى عشاء ينفق عليه ألف ليرة!!

كنت أتعجب من صاحبي هذا، يختلف مع الناشرين على النسبة التي يستحقها المؤلف عن كتبه، وتكون النسبة شيئًا متواضعا. وتكون المناقشة طويلة ويكاد يأتي بأولاده بملابسهم الممزقة دليلًا على أنه لا يكسب منك. أستمع لذلك بكل اندهاش وأنا آت بسجية أهل قرى الجزيرة الطيبين عندما أنظر إلى ملابسه وإلى سيارته وإلى جواهر زوجته وبناته، ولكنه لا يكف عن الشكوى وعن البكاء!! شيء عجيب.

فإذا دعاك اللبناني في بيته ليلًا فأنت في قصر به خدم وحشم، وإذا بالطعام فاخر في غاية السخاء، وإذا هو إنسان آخر ألطف وأظرف وأكثر مجاملة، وإذا بزوجته غاية الشياكة والأناقة فما معنى ذلك؟ معناه أنه كتاجر لا بُدَّ أن يكون شاطرًا ولا بُدَّ أن يغلبك، فإذا ذهبت إلى بيته فأنت ضيف عليه ولك كل الاحترام، ومن أجلك تهون كل الأشياء.

بعد الحرب الأهلية الأولى هاجر الكثير من اللبنانيين، نظرًا إلى الدمار والخراب الذي حل بها، وهجرة اللبنانيين

للعمل بنجاح وبراعة في أماكن كثيرة من الدنيا، وفي الوقت نفسه لديهم جميعًا الاستعداد للعودة إلى بلادهم، وحتى لأولادهم يغرزون فيهم هذه الروح الوطنية، ويتحدثون أمامهم بكل خير عن وطنهم، وعلى الرغم من نجاحهم العظيم في كل مشاريعهم في قارات العالم.

وزيارتي كانت بعد حرب إسرائيل عام 2006 مباشرة، فعلى الرغم من الدمار كل محلات في بيروت تعمل، وكل دور السينما وكل الكازينوهات، وترى الوجوه الضاحكة والصحة والعافية، الصلابة والحيوية والشموخ. تجد المطاعم اللبنانية في كل العواصم العالمية.. فأينما ذهبت في أرض الله الواسعة لا تحتار كثيرًا؛ أسأل عن المطعم اللبناني أقرب شخص يدلك عليه.

هذا ما درجت عليه في كل رحلاتي في أوروبا، إنهم أوروبيون وفي الوقت نفسه لبنانيون مائة بالمائة، فالمطاعم نظيفة أنيقة، والطعام وطني، والموسيقى والزبائن كلهم لبنانيون وأجانب، خاصة العرب، واللبناني لم يذهب إلى مطعم غير لبناني، ولم يدع أي شخص في مطعم غير لبناني، وهو فخور بذلك وأنت راضٍ في النهاية.

لم يمضِ وقت طويل من حرب تموز الحرب الإسرائيلية على لبنان 2006، وشهدت لبنان دمارًا واسعًا، وحرقت كل شيء ولم يبق شيء، ولكن استعادت لبنان جمالها وأبهتها وفخامتها، فالذين عادوا من لبنان أخيرًا، نظرًا إلى عدم زيارتي لها قريبًا، يقولون إن لبنان قد عاد إلى سابق جماله

على الرغم من التوجس والخوف من الحرب السورية التي أطلت برأسها على لبنان.

السؤال الذي يحيرني ويحير الكثيرين من أمثالي: لبنان دولة فقيرة تقدم خدمات جليلة للزائر وللمواطن، فليست لها موارد طبيعية كمواردنا نحن، وإنما مصادر خيراتها كلها الإنسان صاحب الفندق الذي يقدم لك الراحة والمتعة والجمال في أجمل صورة، وصاحب التاكسي الذي يتعامل معك بلطف وحسن ضيافة، وصاحب المطعم الذي يقدم لك الطعام في أبهى صورة ونظافته، والمغترب الذي همه الأول والأخير بلده وهم كثر، وتحويلاتهم واستثماراتهم ضخمة للغاية، لأنهم محترمون في وطنهم لذلك أنهم وطنيون للنخاع.

فعندما يذهب السائح إلى قبرص فعينه على بيروت، يذهبون إلى تركيا وعيونهم أشد حزنًا على بيروت، مهما ذهب السائح الذي زار بيروت لن يترك بيروت، فهي في قلبه.. فهي في قلبي.. وهناك أعداد كبيرة جدًّا من الأجانب، ومنهم السودانيون الذين يعملون في لبنان، في هذا البلد الصغير بموارده ومساحته والكبير بعقلية إنسانه، وفي كل مجتمع تجد الجهلاء والعنصريين، ولبنان ليس استثناءً، لكن عن نفسي لم أجد هذه العنصرية لكن سمعت عنها، قد تكون، لكن لزيارتي القصيرة لن يمر بي موقف يدل على ذلك.

عماد وصديقه ودفعته «دفع الله» لهما أعمال تجارية

ضخمة مع بعضهما، ووكيلهما هو شقيق عماد الأكبر «يوسف»، الذي ترك محل خدمات الطالب لشقيقه الأصغر بعد توسع عماد في التجارة هو وصديقه «دفع الله»، يقدمان كل التسهيلات والتجاوزات في حال واجهت وكيلهما أي صعوبات تتعلق بالدوائر الحكومية من بنوك أو أراضي وجمارك وهكذا.. وظلوا شركاء في كل شيء واغتنوا غناء فاحشًا من هذه التجارة، وأصبحوا حديث دفعتهم وأهاليهم، واستطاعا في سنين وجيزة تأسيس شركة في دولة عربية وشركة لتصدير البترول والذهب، وأسسا فلتين متجاورتين في أرقى أحياء العاصمة، وكذلك مزرعة أبقار وغير البيوت والأراضي.

ذهب عماد إلى «دفع الله» في مكتبه قبل أن يهم بالمغادرة إلى البيت، دخل عماد إلى مكتب دفع الله فوجده منهمكًا في التحقيق مع بعض المعتقلين.. رأى شابًّا يضرب من قدميه ومكتوف اليدين، وكان المحققون يضربونه ما بين ساقيه بعصا غليظة جدًّا، فيطلق صرخات بينما صوت دفع الله وصرخاته أقوى منه.

فلما لمح «دفع الله» صديقه عماد أسرع يصافحه.. وطمأنه أن السيارة جاهزة وسأحدثك عن مشروع آخر - كل هذا وترك المعتقل معلقًا - وأما بخصوص السيارة اليوم اتصل على الراجل وأرسل واحدًا من الأفراد أو المخبرين يوصلها إليك البيت.. (هذه السيارة طلبتها سهام زوجته).

ودعه وخرج من مكتبه.

وفكر عماد في أن يلقي التحية على زميله «يوسف» وهو يعتبر الدفعة السابقة في الجهاز، وهو ليس بصديقه، لكنهم زملاء في العمل، والتقوا في يوم ما في رحلة عمل خارجية لتجميع بعض المعلومات عن بعض الناشطين وليس معارضي سلاح أو تمرد، بل معارضين كما يسمونهم معارضي «كي بورد» مدونين وكل جريمتهم أنهم لا تعجبهم سياسة حزب المؤتمر الوطني وعبقرية البشير، يعني معارضي رأي، وبالكلمة فقط، فهؤلاء اتضح في النهاية أنهم يسببون إزعاجًا أضخم من التمرد المسلح، لأنهم غير معروفين، وأحيانا تكون أسماؤهم وهمية أو مستعارة، يعني أنهم يحاربون أشباحًا.

وفعلًا تسببوا في أذية جزء كبير جدًّا من هؤلاء من يعملون في الخارج، ورحَّلوهم إلى السودان وقطعوا أكل عيش الكثير منهم، ولم يرف لهم جفن بأن أسرهم لا عائل لها في الغربة إلا الأب الذي أدخلوه السجون وبتهم ملفقة.. ثم أعادوهم إلى السودان.

ولما حان موعد الأذان والصلاة حاول تذكير يوسف بصلاة الظهر، كذلك وجده من ضمن المحقق معهم شاب كان منهكًا ونحيل الجسم، وظاهر على وجهه الضرب والجروح الجديدة، فعندما رآه استحضره؛ إنه ذلك الشاب الذي رُحِّل من الخارج وكان معه في الرحلة نفسها التي أعادته إلى السودان، والتهمة كانت نشره صورًا لأفراد من الجهاز تعتبر سرية.. ولكن تغير جسمه ولون بشرته

ونحل جسده ولا يستطيع الوقوف.. لم يهتم عماد به كثيرًا كعادته، خاصة هذا اليوم، فهو لا يريد أن يتعب تفكيره، وكل همه الذهاب إلى البيت اليوم قبل انتهاء الدوام.

وانصرف مسرعًا لئلا يعطله عن عمله، فأشَّر له على الصلاة. وتوقف عن تعذيب الشباب احترامًا لصوت الأذان، وذهب مع صديقه عماد إلى المسجد الصغير الذي خلف زنازين التعذيب مباشرة، فهم يتوقفون عن التعذيب عند سماع صوت الأذان فهذا يسمى «تدينًا بلا أخلاق».

وحدثت هذه الواقعة أمامي قبل سنوات، في رمضان كنت أذهب إلى سوق أم درمان يوميًّا، وأمام البوسطة كانت هناك مكتبات صغيرة قبل إزالتها، وفي صاحب مكتبة شاب من أبناء نيالا، فكنت أجلس معه وآخذ منه بعض الكتب وأتصفح الجرائد اليومية ثم أذهب، وكان أمام هذه المكتبة بائعون يفترشون الأرض ليعرضوا بضاعتهم، ومن بينهم كان هناك رجل كبير في السن يرتدي – عراقي وسديري - دائمًا، وبضاعته كانت لعب أطفال وبلاستيكًا متنوعًا. في يوم جاءت البلدية معظم الباعة حملوا بضاعتهم بسرعة متناهية وهربوا ونجوا جميعهم، إلا هذا الرجل لم يتمكن من الهرب، وصادروا بضاعته، فتألمت للموقف فذهبت للمسؤول فكان وقحًا جدًّا؛ شتم الرجل ورد عليه الشتيمة وضربه، وتكالب عليه العمال ورفعوه مع بضاعته.

الذين ضربوا هذا الرجل بما فيهم هذا المسؤول من ملامحهم إنهم صائمون، ودخلوا المسجد ليصلوا جماعة.

هل هؤلاء الذين ظلموا هذا الرجل وضربوه لا يتطرق إلى تفكيرهم أبدًا ألا تعارض بين عدم الأخلاق وأداء أهم فريضة الصلاة والصيام؟

وهل يوجد من هو أحرص على شعائر الدين من البشير وأسرته وقادة حزب المؤتمر الوطني، الذين نهبوا الشعب السوداني وزوروا إرادته وأفقروه وأذلوه، فهم متدينون ويؤدون هذه المشاعر الدينية وهم مرتاحو الضمير.

استقالت وزيرة في السويد لأنها ملأت خزان وقود سيارتها من أموال الدولة؛ هذه الوزيرة غير متدينة، لكن لديها أخلاق.

دخلنا المعتقلات ورأينا بجوار غرف التعذيب أو السلخانات توجد مساجد صغيرة يؤدي فيها هؤلاء السلَّاخون الصلاة في مواقيتها، ومواظبون على أداء الصلاة ولا يفوتون وقتًا أبدًا، وغالبية من رأيتهم على جباههم غرة الصلاة، ومن تهذيبهم وأخلاقهم يتوقفون عن تعذيب المعتقلين عندما يسمعون الأذان!!

من يناهضون التعذيب والاعتقالات هم منظمات إنسانية، جلهم أو غالبيتهم من غير المتدينين، لكن لديهم أخلاق.

شيخ سلفي نموذج لشيخ وعالم منتفع يمتلك منظمات غير مسجلة منذ سنين، وتتمتع بجميع الإعفاءات

الجمركية، وتلقى من ورائها ملايين الدولارات، واغتنى وبنى العمارات وأسس قنواته الفضائية، والتي يعظ فيها المسلمين في كل شيء، إلا فيما يحتاجون إليه حقًّا؛ الحرية والعدالة، وهما جوهر الإسلام. فلم يتكلم عن التعذيب ولا فساد البشير وأسرته، لأنها معارك ستكلفه الكثير ولا يمانع أن يخوض معركة مع الوزيرة، فهذه مريحة وغير مكلفة.

أيقونة الإنسانية أنجلينا جولي، فنانة أمريكية، أنفقت ما يقارب 53 مليون دولار للأعمال الخيرية خلال تسعة أعوام، وتبنت سبعة أطفال من مختلف الجنسيات، وزارت عدة مخيمات للاجئين.

سؤال: كم مرة زار الشيوخ المتدينون أصحاب المنظمات مخيمات دارفور؟ أنجلينا غير متدينة، ولكن لديها أخلاق.

هذا الانفصال التام بين العقيدة والسلوك، أو الأخلاق ظاهرة، انتشرت في السودان مع بداية حكم المتأسلمين، أي مع بداية حكم الجبهة الإسلامية، وهناك آلاف وربما ملايين السودانيين يرون في الإسلام الحجاب والنقاب والصيام والصلاة والعمرة والحج. تجد الشخص يمارس كثيرًا من الموبقات، على الرغم من أنه متدين فإنه تدين شكلي، ومضار هذا النوع جسيمة على المجتمع، لأنه يدفع الناس إلى ارتكاب أشياء مشينة بضمير مستريح، لأنها لا تخالف ضميرهم الديني ولا أخلاقهم، وهذا يقودنا إلى الحقيقة التالية: كما قال أديب عربي:

«إن التديـن الحقيقـي يجـب أن يتطابـق مـع الأخـلاق، فـإن الأخـلاق بـلا تديـن أفضـل بكثـير مـن التديـن بـلا أخـلاق».

بعـد الصـلاة جماعـة مـع ضبـاط وعسـاكر جهـاز الأمـن السـياسي وصـل عـماد إلى مكتبـه، حيـث حقـق بنفسـه مـع شـابين لم ينتميـا إلى أي حـزب، بـل يعارضـان سياسـة حكومـة البشـير في معالجتهـا الأوضـاع المعيشـية، والـتردي الواضـح في كل مناحـي الحيـاة، كانـا يدعـوان المواطنـين إلى الخـروج إلى الشـارع مـن أجـل تحسـين الأوضـاع المعيشـية.. وضـد هـذه الحكومـة، وتحدثـا عـن التعذيـب في السـجون والانتهـاكات فيهـا.

وجـه إلى الشـابين وابـلًا مـن الشـتائم بعـد صرخ، وهـاج ومـاج عـماد كثـيرًا، وكان لا شيء يدعـو إلى كل هـذا الـصراخ، واللافـت للانتبـاه هنـا صديقـه «دفـع الله»، الـذي كان يعـذب في المعتقلـين وكان صوتـه يهـدر ويـصرخ، وعندمـا دخلنـا المعتقـلات وجدنـا أن ضابـط الجهـاز عنـد تعذيبـه للضحيـة يـصرخ، لكـن لم يسـأل أحـد لمـاذا هـذا الـصراخ؟ للإجابـة عـن هـذا السـؤال:

هـؤلاء الشـباب المعتقلـون لم يخالفـوا القانـون ولم يرتكبـوا جريمـة أو خطـأ، كانـوا يريـدون فقـط أن يعـبِّروا عـن رأيهـم، يريـدون العدالـة الاجتماعيـة والحريـة والسـلام، كل هـذه المطالـب عادلـة ومشروعـة، إذًا لمـاذا نُـكِّل بهـم وضُرِبـوا وعُذِّبوا وقُتِلـوا بهـذه الصـورة البشـعة؟ هـذا مـا يـدور في خاطـر هـؤلاء المتوحشـون وهـم يصرخـون.

لا توجد دولة في العالم محترمة تعاقب مواطنيها بتلك البشاعة التي عاقبت بها حكومة الإنقاذ شبابها وتقتلهم بهذه الصورة المقززة، لمجرد أن شخصًا عبَّر عن رأيه، وسيظل وصمة عار تلاحق كل من شارك هذا النظام، ومن قام بهذا الفعل أو أمر به، حتى لو فلتوا من العقاب إلى الأبد. إنهم يضربون الشبان والبنات بالعصي الغليظة على رؤوسهم وأجسادهم، وبكل تشف وغيظ يظهر على وجه رجل الأمن المعتدي، إذًا لماذا يعتدي سودانيون على سودانيين مثلهم بهذه الوحشية وبهذا التشفي؟ وماذا فعلوا حتى يستحقوا ذلك؟ ويظل الشبان والبنات يضربون، ومنهم من يصاب بجروح بالغة حتى تسيل دماؤهم، ويستمر الضرب، وكما أفادت بعض الشهادات، حتى دخول المعتقل والصراخ في أثناء هذا الضرب، وأفادت بعض البنات في المعتقل في الاستقبال، قبل الدخول إلى السجن، أنهن يضربن، وأكثر ما لفت نظري أيضًا الصراخ في أثناء الضرب والشتم، وأفاد من كان مع الشهيد الأستاذ أحمد خير في شهادته، أنه مورس ضدهم أبشع أنواع التعذيب، وكانوا يصفونهم بأبشع الأوصاف، وكانوا يشتموهم ويصرخون في أثناء الضرب التعذيب.

ولماذا تتقلص وجوههم بشدة ويصرخون في وجوه الضحية بلا توقف؟ من الطبيعي يصرخ الضحية الذي وقع عليه الأذى والذي تنتهك كرامته ويهتك عرضه ويسحل على الأرض، أما رجل الأمن الذي يضرب

ويسحل لماذا يصرخ حتى يتقلص وجهه؟ هل يصرخ لكي يرهب الضحية؟ بل بالعكس يستطيع أن يفعل ما يشاء. يضرب، يصفع يسحل، حتى لو قتله لن يعاقبه أحد. لماذا يصرخ وكأنه هو الذي يتألم؟ فهو يقاتل شخصًا ضعيفًا أمامه سلم نفسه كلية له ولا يحمل سلاحًا ولا حول له ولا قوة.. وجدت تفسيرًا لأحد الأدباء لأسباب صراخ وتقلصات وجه رجل الأمن في أثناء تعذيب الضحية:

كان يصرخ لكي ينسى أن واجبه الحقيقي أن يحمي هذا المعتقل الذي أمامه؛ بنت أو رجل، لا أن يعتدي بنفسه عليها.

كان يصرخ لينسى أن هذا المعتقل يشبه ابنه أو ابنته، التي لا شك أنه يحبها ويحنو عليها، ولا يسمح لأحد أبدًا بأن يهينها أو يؤذيها.

كان يصرخ لأنه يحس بأن هذا الشاب أو هذه البنت التي يضربها أقوى منه، لأنها تدافع عن الحق والعدل، ولأنها بريئة وشريفة.

كان يصرخ لأنه أحس أنه على الرغم من قوته مهزوم، وأن هذا الشاب أو هذه البنت الضعيفة المنتهكة المسحولة هي التي ستنتصر..

كان يصرخ لأنه عندما تخرَّج كان يحلم بأن يكون رجل القانون والعدالة، وأقسم على أن يحمي أعراض السودانيين وحياتهم وممتلكاتهم، لا أن ينتهكها أو يسمح بانتهاكها.

كان يصرخ فإذا به يتورط شيئًا فشيئًا، ومهمته أن يعذب الناس ويهتك أعراضهم، لحماية نظام فاسد ظالم متهالك لم يتبقَّ منه شيء.

كان يصرخ لأن الضحية تتلقى الركلات بالأحذية القوية لا تتوسل ولا تستنجد ولا تستجديه، وأكثر ما يغيظ الظالم ويشعر بالسياط في جسده عندما لا تستجديه وهنا يشعر بالألم.

كان يصرخ لأنه يعتبر نفسه متدينًا، فهو يصلي ويصوم بانتظام، حتى صلاة الفجر يحرص على أدائها حاضرًا ما استطاع، ومن كثرة سجوده على جبينه علامة الصلاة من سنوات.

كان يصرخ لأنه قد يموت في حادث سيارة، أو يكتشف فجأة إصابته بمرض خطير يودي بحياته، أو حتى كما يحدث لكثيرين، قد يدخل في فراشه بالليل وفي الصباح لا يستطيع أحد إيقاظه، لأنه كان ميتًا.

كان يصرخ لأنه يومئذٍ لا ينفعه البشير، ولا إخوان البشير، ولا زوجة البشير، ويوم العرض العظيم سوف يتخلون عنه الناس، ولن تنفعه رتبته ولا علاقاته وماله الذي جمعه بتعذيب وقتل الناس حتى يرضى عنه السلطان، ويسأله الله: لماذا هتكت عرض فلان.. ولماذا سحلت فلان.. حينها لا يستطيع أن يقول إنه كان ينفذ التعليمات، فلن تغنيه التعليمات من عذاب الله شيئًا. لذلك كان يتقلص وجهه ويصرخ.

وعـماد في مكتبـه، أو سـلخانته الصغـيرة، مـارس هوايتـه في تعذيـب المعتقلـين وأحيانًـا قتلهـم، بعـد أن انتهـى مـن التحقيـق الصـوري مـع الشـباب لم يعجبـه أحدهـم صاحـب الشـعر الطويـل الأسـمر، كأنـما بنظراتـه كان يتوعـد عـماد، هـذا مـا تخيلـه أو أحـس بـه؛ أن هـذا الشـاب كان يعاتبـه ويقـول لـه: إننـا مظلومـون فلـماذا تعاقبنـا وتقتلنـا، فهـاج عـماد وقـام مـن خلـف مكتبـه وصفعـه عـدة مـرات عـلى وجهـه بيـده اليمنـى وضربـه بصـوت «عنـج»، أو مـا يسـمى بالكربـاج، وأطلـق عليـه وابـلًا جديـدًا مـن الشـتائم والـركلات والصفعـات، ثـم سـلم أمـره إلى الأفـراد فسـحلوا الشـاب مـن قدميـه، ويضربونـه بأحذيتهـم الغليظـة عـلى رأسـه حتـى فقـد الوعـى.. وتركـه عـلى هـذا الحـال وذهـب إلى بيتـه مسرعًـا، وهكـذا هـو دوامـه وهكـذا هـي نهايـة يـوم عملـه.

وضابـط جهـاز الأمـن الـذي يُعـذِّب المعتقلـين، مهـما تظاهـر بثباتـه، فهـو مضطـرب دائـمًا ويعيـش في هلـع، وظهـر ذلـك جليًّـا في قتلـة الأسـتاذ أحمـد الخـير، الـذي اُعتقِـل في ينايـر 2019، وعُـذِّب حتـى مـات في المعتقـل، حاولـوا الهـروب مـن بيوتهـم والاختفـاء مـن الحيـاة العامـة.

المسـتنكر هـو أن يحـدث كل هـذا في دولـة تدعـي المـشروع الإسـلامي الحضـاري، فضابـط جهـاز الأمـن الـذي يتـورط في تعذيـب النـاس في المعتقـلات تجـده يعيـش في هلـع وتوتـر دائـم، وتجـده يتنقـل مـن بيـت إلى بيـت ومـن حـي إلى حـي، ويتحاشـى التعامـل مـع النـاس يتوقـع في أي لحظـة أن أحـد

ضحاياه في سلخانات التعذيب سينتقم لكرامته وشرفه. وللمفارقة كما ذكرها أحد الأدباء، أن القاضي الذي يحكم على الناس في محكمة الجنايات، عندما يحكم بالإعدام يذهب إلى بيته مطمئنًا بغير حراسة، وغالبًا ما يستقبل أهل المتهم الحكم بالبكاء والصراخ، لكن لم يتطرق إلى ذهن القاضي أن أهل المحكوم عليه بالموت سينتقمون منه، لأن العدل الذي حققه هو من وفر له حماية كتيبة كاملة.

الإحساس بالعدالة لا يقتصر تأثيره في القضاة والمتقاضين، وإنما يمتد إلى الناس في البيوت وفي الشارع. فعندما صدر الحكم بالإعدام على رجال جهاز الأمن، قتلة الأستاذ أحمد خير، ملايين من السودانيين فرحوا وهللوا للعدالة التي تحققت وعادت بعد أن غابت عنوة واقتدارًا، وشعروا لأول مرة بأنهم استردوا وطنهم المغتصب من تجار الدين.

العدل هو قانون يتساوى فيه الجميع، وعندما يحس الإنسان بالعدل يتملكه شعور يحثه على الاجتهاد، وأنه واثق من تحقيق هدفه كما يتملكه شعور بالانتماء.. العدل يخرج من الإنسان أفضل ما يملك من قيم.

مفهوم العدل بين الناس كان غائبًا ولم يعد موجودًا في دولة المشروع الحضاري. وكانت لا توجد قاعدة واحدة في السودان تسري فعلًا على الجميع.. بدءًا من العلاج في المستشفيات وحتى التعليم وقروض البنوك. وصلت الأوضاع في السودان إلى الحضيض، قوة علاقتك بالمؤتمر الوطني البائد أهم عامل حاسم في تحديد القاعدة التي

ستحاسب على أساسها. وتفتح لك بها جميع الأبواب المغلقة في البنوك في التعليم حتى في مخالفات المرور، وهذا ما أدى إلى إحباط الشباب، وهي الشريحة الكبرى في المجتمع، ونادوا بالتغيير والثورة وواجهوا الموت من أجل التغيير، لأنهم وصلوا إلى نتيجة أن الاجتهاد لا يؤدي بالضرورة إلى النجاح، والخطأ لا يؤدي إلى العقاب، وبدلًا من الموت في البحار فضلوا الموت في تغيير الواقع في وطنهم، وكل شاب يرى أن ملايين الفقراء بدءًا من أهل بيته أو في الحي يقتلهم المرض والجوع، ويدفعون ضرائب عن مرتباتهم الهزيلة، في حين أن أبناء الحركة الإسلامية يصنعون الثروات الضخمة، ولا يجرؤ أحد حتى على سؤالهم من أين لكم هذا الثراء؟! فصار معظم السودانيين والشباب هم الشريحة الكبرى يطالبون بالتغيير الذي يحقق لهم العدل والكرامة والحرية. وأدركوا أن التغيير لن يتحقق أبدًا بواسطة شخص مهما تكن نواياه حسنة وأخلاقه فاضلة.. التغيير سوف يتحقق بنظام جديد عادل يتعامل مع السودانيين باعتبارهم مواطنين كاملي الأهلية والحقوق وليسوا رعايا وعبيدًا لإحسان الحاكم.

إن الظلم في عهد دولة المشروع الساقطة كان ببساطة أكثر من طاقتنا على الاحتمال، وعندما يتساوى السودانيون جميعًا أمام القانون عندئذ فقط سيبدأ المستقبل، لأن مشكلتنا ليست في قلة الموارد أو في قلة الطاقة البشرية إنما مشكلتنا تتلخص في كلمتين: - غياب العدالة - وسيعود القانون

وتعـود الأخـلاق بعـد أن غـاب عمـدًا مـن المجتمـع أذكـر في إحـدى المـرات، وفي أثنـاء تصفحـي عـلى الفيسـبوك اشـتكت شـابة سـودانية عـلى الفيـس البـوك أنهـا خريجـة جامعـة محترمـة موظفـة في شركـة حكوميـة سـودانية، إن المديـر لم يـصرف لهـا حافـزًا، ولقـد تجاوزهـا في الترقيـات السـنوية، وهنالـك مـن توظـف بعدهـا صرف الحافـز، وتمـت ترقيتـه وزيـادة راتبـه، وقالـت إنهـا مجتهـدة في عملهـا ولم تغـب عـن عملهـا إلا للظـروف القاهـرة، واشـتكت هـذه الموظفـة بـكل مـرارة مـن هـذا المديـر الظـالم، وطلبـت مـن متابعـي الصفحـة أن يقترحـوا عليهـا مـاذا تفعـل، ثـم سـألت هـل إذا تقدمـت بشـكوى إلى مكتـب العمـل سـينصفها؟

مـن بـين عـشرات الاقتراحـات تقـدم بهـا متابعـو الصفحـة، كان هنـاك اقتراحـان فقـط بـأن تلجـأ الشـاكية إلى مكتـب العمل بعـد أن تتظلـم للمديـر. أمـا أغلبيـة الاقتراحـات فكانـت أفكارًا عنيفـة وأمـا الأعنـف اقـترح عليهـا أحـد المتابعـين بـأن تسـلط عليـه أشـقائها. في المجمـل لا أحـد نصحهـا عـلى القانـون.

هـذه الواقعـة عـلى فيسـبوك تـدل أولًا عـلى أن السـودانيين لا يثقـون بقـدرة السـلطات (أو رغبتهـا) في تنفيـذ القانـون، كـما تـدل عـلى انتشـار العنـف في حياتنـا اليوميـة.. هـذا العنـف الزائـد يتجـلى في سـلوكنا الاجتماعـي.

الواقعـة الثانيـة كانـت معـي أنـا؛ تعاقـدت مـع شركـة محترمـة، وكنـت حريصًـا بالاسـتمرار فيهـا، لأنـه كانت سـاعات الـدوام مريحـة وامتيازاتهـا مغريـة، وكان مديـري المبـاشر في

هـذه الشركـة اسـمه «ديفيـد»، إيطـالي الجنسـية. وكان معـي في القسـم الـذي أعمـل فيـه هنـود وبعـض الآسـيويين، وكان نظـام الشركـة نهايـة كل عـام يقيِّـم المديـر مرؤوسـيه، ويحـدد المديـر المكافـأة التـي يسـتحقها، وهـذا حسـب النسـبة التـي تحصلـت عليهـا، وعـلى الرغـم مـن اجتهـادي في المهـام الموكلـة إليَّ، وكنـت أفضـل مـن غـيري بكثـير عـلى الرغـم مـن بعـض الهفـوات أيضًـا كنـت أفضلهـم، إلا أنـه بعـد تقييمـي أوصى بـصرف نصـف الراتـب كحافـز، لأن تقديـري لم يكـن ممتـازًا - الـذي أسـتحقه - أحسسـت بالإهانـة والظلـم؛ شـكوت مـا حـدث إلى مديـر شـؤون الموظفـين، فخـيرني بـين أن أشـتكي أو أن أتركـه.

ولائحـة الشركـة تنـص عـلى أنـه مـن حـق الموظـف إذا أحـس بظلـم مديـره المبـاشر أن يتقـدم بشـكوى إلى المديـر العام، وفي هـذه الحالـة يُقيَّـم مـن أكثـر مـن قسـم بمـدى تفاعلـك، وتعاملـك مـع الآخريـن إذا ثبـت ظلـم المديـر للموظـف سـوف يُسـتجوَب مـن قبـل الإدارة لمعرفـة الأسـباب وقـد يلغـي عقده. ثـم ذهبـت إلى المديـر وناقشـته في هـذه النتيجـة، وهددتـه بأننـي سـأتقدم بشـكوى رسـمية للمديـر العـام ثـم انصرفـت، وعنـد اتصـالي بالسـكرتير فـإذا بـه يخـبرني بأنـه عُـدِّل التقييـم الخـاص بـك بعـد مراجعـة بعـض البنـود، وأوصى مسـتر «ديفيـد» بـصرف راتبـك كامـلًا.

فكـرت في هاتـين الواقعتـين: المديـر (الخواجـة) ظـالم تمامًـا مثـل المديـر السـوداني الـذي ظلـم الموظفـة السـودانية، لكنـه

فشل في ممارسة هذا الظلم ضدي، لأن هناك قانونًا في الشركة يراقب حقوق الموظفين ويحميهم من الظلم، أما القانون في الشركة السودانية يمنح المدير الحق وسلطات تجعله يفعل في مرؤوسيه ما يشاء بغير حساب. الظلم موجود في كل مكان لكن الذي يحقق العدل هو القانون الذي يطبق على الجميع الكبير والصغير المدير والغفير، والذي حدث لهذه الشابة حدث ويحدث كل يوم في السودان.

إن القانون في السودان كان يطبق غالبًا على الضعفاء الذين يصعب عليهم الإفلات منه، فنذكر الموظف الذي سرق مروحة حُوكِم بسرعة فائقة وحُبِس، ولكن الذي سرق الدولة وأخذ العمولات من الشركات البترولية، والذي باع مشروع الجزيرة فلا أحد يستطيع الاقتراب منه.

إن سلوك السودانيين الآن بعد أن كان الأعنف من أي وقت، الآن بدأ يتغير الظروف الاجتماعية، والسياسية قادرة على إخراج أفضل أو أسوأ ما لدينا من تصرفات. كلنا رأينا تلك الحالة من التسامح والتهذيب التي سادت السودان بعد انتصار ثورة ديسمبر والإطاحة بالنظام الفاشي الديكتاتوري، عندئذ نزل عشرات الألوف من الشبان والشابات في كل مدن السودان وفي ميادين الاعتصام، ليكنسوا ويغسلوا الشوارع بأنفسهم، ويعيدوا طلاء الأرصفة على نفقتهم. كانت رسالتهم: إننا لم نكن نهتم بنظافة الدولة لأننا لم نشعر قط أنها بلدنا، أما الآن بعدما

استعدناها من الديكتاتور فسنكون أحرص الناس على نظافتها.

إن التاريخ يعلمنا أن الثورة لن تموت وتحاول القوى المضادة قتلها وإفشالها لكن يستحيل أن يقدروا على إفشالها وطريق الثورة طويل. والتاريخ يعلمنا أن الثورة قد تتعثر وتتأخر نتائجها لكنها ستنتصر حتمًا، وستعود إلينا أخلاقنا في دولة القانون.

يوجد تمثال على مدخل كثير من المحاكم تمثله سيدة ممسكة ميزانًا، فهذا يعرف بتمثال سيدة العدالة الروماني الشهير، يمثلها وهي تمسك بالميزان في يد وفي اليد الأخرى سيف، في حين أن عينيها معصوبتان، لأنها تنفذ القانون على الجميع دون أن ترى أشخاصهم ولا مكانتهم. سيدة العدالة السودانية كانت على عكس الرومانية، عينها مفتوحة، لأنها تنفذ القانون فقط على الضعفاء وتمتنع عن تنفيذه على الأقوياء.

في بداية الثورة، وأيام محاكم الطوارئ التي أنشأها النظام البائد للتنكيل بشباب الثورة وترويعهم، سمعت تسجيلًا لأب يحكي، ويعتصره الألم، عن كيفية محاكمة ابنه في محاكم الطوارئ بعد أن حكموا عليه بأربعة شهور سجن وغرامة مالية، كان قد قُبض عليه في مدينة شمبات في مظاهرة سلمية، وكانوا مجموعة كبيرة ومعه في هذه المجموعة نفسها ابن شقيق أحمد هارون، والي شمال كردفان السابق ورئيس حزب المؤتمر الوطني المنحل، وكان نزيلًا معهم مدة يومين

في السجن. عندما بدأت جلسة المحاكمات لهؤلاء الشباب اختفى ابن أخ الوالي، وقال لقد سألت عنه واتضح أنه تم تقديمه للمحاكمة منفردًا وأخذ براءة.. ماذا فعلت محكمة الطوارئ في جريمة القتل التي طالت العشرات بيد أجهزة الأمن في ذلك الوقت؟ لا شيء.. هكذا كان يُستعمَل القانون في عهد دولة المشروع الحضاري على هوى السلطة بدلًا من تنفيذه، ولا يُنفَّذ أساسًا، وإنما يُستعمَل ضد من تريد السلطة أن تنكل بهم. إن الذي حدث في محاكم الطوارئ أكبر دليل على أن القانون كان مجرد أداة في يد السلطة تستعمله لتحقيق أغراضها وتريد أن تنكل به الشباب الثوار لتخويف وترويع البقية، حتى تتوقف الثورة، ولقبح هذا القانون فكان لا بُدَّ من إيجاد مبرر، فكان مبرر المسؤولين بأنه خلق قانون الطوارئ للقضاء على الفساد ومنع تهريب الدهب، ولم نشهد ذلك.

سؤال: إذا كنت طالبًا جامعيًّا، كم مرة رأيت زملاءً لك يحصلون على أعلى الدرجات بسبب توصيات من شخصيات مهمة (نافذة) أو نتيجة لمجهودات قاموا بها لصالح جهاز الأمن وحزب المؤتمر الوطني ضد زملائهم؟ وكم مرة رأيت طلاب المؤتمر الوطني يحصلون على أهم وظائف في الدولة ويحجبونها عمن يستحق؟ وكم مرة رأيت طلاب المؤتمر الوطني يتخرجون في الجامعات وأُضيفت درجات لهم بحجة أنهم مجاهدين؟ طبعًا كثيرًا جدًّا ولا تُحصَى ولا تُعد.. وما هو تأثير هذا الظلم عليك؟

الإجابة: تأثير الظلم والعدل لا يقتصر على القضاة والمتقاضين في داخل المحكمة فقط، وإنما يمتد إلى الناس جميعًا خارج قاعة المحكمة، وينتشر بسرعة هائلة ويستشعر به الناس عمومًا، ويظهر في أدائهم وظائفهم المختلفة، عندما يشعر الإنسان بالعدل تنطلق طاقاته، ويحثه على الاجتهاد ويجعله يحلم بالمستقبل وهو واثق من تحقيق هدفه. سيظل يجتهد في أي موقع هو موجود فيه؛ إن كان طالبًا واثقًا بأن الاجتهاد هو الذي سيؤدي إلى النتيجة، وإن كان موظفًا يدرك بأن الجدارة هي التي تؤدي إلى الترقي وليس الولاء. إنه العدل يا سادة، هذا المفهوم لا يوجد في دولة الاستبداد البائدة، وكانت لا توجد قاعدة واحدة تسري فعلًا على الجميع.

إن المواطن الذي يتقبل الظلم ويتأقلم معه سيعيد إنتاجه غالبًا على الآخرين بمجرد أن يصل إلى موقع السلطة، وهذا يعني سلسلة الظلم لن تتوقف.

القاضي أو أي موظف حصل على منصبه بفضل تعاونه مع أجهزة الأمن، وليس لجدارته سينافق رئيسه دائمًا حتى يحتفظ بمنصبه، لا يمكن أن نتوقع منه الموضوعية أو النزاهة.

في عهد الظلم تختفي المعايير وينفتح الباب على مصراعيه للمجاملات، فيأخذ الأفاكون والمنافقون مناصب ليست من حقهم، ويتوارى أصحاب الجدارة لأنهم لا يملكون العلاقات أو الواسطة، وعندما يتأكد الناس من انتشار الظلم واختفاء المعايير يتحول الفساد من سلوك إلى ثقافة،

ومـن المقبـول والطبيعـي يتدخـل الكبـار حتـى في أقـدس مهنـة، وهـي القضـاء، لتغيـير مجريـات أي قضيـة وتلفيـق التهـم عـلى الأبريـاء.

لذلـك العـالم أصبـح يرفـض الاسـتبداد مـن حيـث المبـدأ، بـصرف النظـر عـن النتائـج المرجـوة، لأن الديكتاتـور المسـتبد مهـما أنجـز في النهايـة سـيؤدي البلـد إلى كارثـة. إن الأضرار النفسـية والذهنيـة للاسـتبداد لا تقـل خطـورة عـن أضراره السياسـية. إن النفـاق والكـذب وانتشـار الظلـم وغيـاب العدالـة كلهـا مـن مضاعفـات الاسـتبداد.

إن أكثـر مـا لفـت نظـري، خاصـة خـلال ثـورة ديسـمبر، مـا تقـوم بـه قنـوات محسـوبة عـلى الإخـوان المسـلمين بمفهومهـا المتخلـف، التـي انفضـح أمرهـا في كونهـا تتبنـى الثـورات، وإنـما كانـت تتبنـى فكـر الإخـوان، مثـلًا الجرائـم التـي ارتكبهـا الجيـش الإسرائيـلي تجـد تنديـدًا واسـعًا وتقاريـر اسـتقصائية لا أول لهـا ولا آخـر في هـذه القنـوات. وكذلـك جرائـم الجيـش الأمريكـي في العـراق ضـد الشـعب العراقـي وجـدت التعاطف مـن جميـع القنـوات الفضائيـة العربيـة ومـن الشـعوب العربيـة أيضًـا، ومـا يرتكبـه الحاكـم العـربي أفظـع بكثـير مـا ارتكبـه المسـتعمر في حـق الشـعب، لكـن مهـما قتـل الحاكـم العـربي واعتقـل وعـذب معارضيـه سـوف يجـد مـن العـرب مـن يدافـع عنـه، بـل يدعمـه ويرفـض أي عقوبـات عليـه، لقـد طالـب البرلـمان العـربي في أحـد جلسـاته واشـنطن برفـع اسـم السـودان مـن قائمـة الـدول الداعمـة للإرهـاب، وفي التوقيـت الـذي كان

فيه النظام يقمع الشعب والمواطنين السلميين بالسلاح، متناسيًا هذا البرلمان كل إرهاب النظام!! وكأن المطلوب منا أن نتواءم مع الاستبداد إلى أبد الأبدين.

السؤال: لماذا هذا التعامي عن جرائم النظام في دارفور ومع المطالبين بحقوقهم في أي مكان؟ السبب هو أن مفاهيم الاستقلال ورفض الاحتلال الأجنبي أقوى في الذهن العربي بكثير من مفاهيم حقوق الإنسان والمواطنة. أضف إلى ذلك خلط الكثيرين بين حب الوطن والولاء للزعيم. إذا كان ما زال ملايين العرب يدافعون عن جمال عبد الناصر، على الرغم من استبداده وقتله معارضيه، والرئيس العراقي صدام حسين الذي قتل العراقيين بالكيماوي، لم تتأثر شعبيته في الشارع العربي، وبشار الأسد تجد كتابًا ومثقفين سوريين حتى اللحظة يهتفون بحياته على الرغم من أنه قتل شعبه بالبراميل المتفجرة وشرد نصف الشعب، مثل هذه الوطنية المفصلة على حسب مزاج الاستبداد لن تجدها أبدًا في الدول الديمقراطية، فالناس هناك يحبون بلادهم مثلنا، لكنهم يؤمنون أن الوطنية يجب أن تكون في حدود العدل والحق، وهم لا يعتبرون الحاكم رمز الوطن، وإنما مجرد موظف عام. إنهم يؤمنون أن الوطنية تستوجب فضح جرائم السلطة ومحاكمة مرتكبيها.

إن الذين فضحوا جرائم الجيش الأمريكي في معتقل أبو غريب كانوا صحفيين أمريكيين، ولم يتهمهم أحد بالخيانة، بل نالوا تقديرًا واسعًا من الأمريكيين لشجاعتهم ودفاعهم

عـن الحـق. وقدمـت قنـاة BBC تقريـرًا اسـتقصائيًّا فريـدًا مـن نوعـه وبعـدة لغـات، وفي كثـير مـن القنـوات الفضائيـة العالميـة مـا عـدا القنـوات العربيـة، وبالـذات قنـاة الجزيـرة، ويفضـح التقريـر مـدى الانتهـاكات التـي يقـوم بهـا جهـاز أمـن الدولـة السـوداني وكيفيـة تعاملـه مـع الشـعب والمتظاهريـن السـلميين العـزل. وكذلـك تعريفًـا تفصيليًّـا عـن كتائـب الظـل والملثمـين وميليشـيات تابعـة للمؤتمـر الوطنـي الحاكـم، وكيفيـة اقتحامهـم البيـوت والاعتـداء عـلى الأطفـال. ومـا قـام بـه هـذا التقريـر عجـزت عنـه قنـوات العـار الإخوانيـة والقنـوات المتوائمـة مـع الاسـتبداد، وفضـح ديناصـورات السياسـة السـودانية المتشـبثين بكـراسي السـلطة، وفي هـذا الوقـت نفسـه كان المؤتمـر الشـعبي يشـارك الرئيـس القاتـل السـلطة، ويحدثوننـا عـن الإسـلام وخوفهـم عليـه مـن الضيـاع.

إن حريتنـا وتطـور بلدنـا وبنـاء وطـن ديمقراطـي حـر نتباهـى بـه في العالمـين لا يعنـي غيرنـا مـن الـدول في أي شيء، بـل هنـاك مـن يسـتكثر علينـا أن نعيـش في الديمقراطيـة، ويعتقد أن النظـام المسـتبد الفاسـد هـو الـذي يلائمنـا ثقافيًّـا أكثـر مـن الديمقراطيـة. لكـن عندمـا نبنـي وطننـا بعـد الثـورة سـيحترمنا العـالم والـدول الإقليميـة، وعندمـا ندافـع عـن حقوقنـا سـننتزع احـترام العـالم. نظـام حسـني مبـارك الرئيـس المـصري السـابق كان قويًّـا جـدًّا، ولـه دعـم خليجـي بـلا حـدود إذا مـا قـورن بنظـام البشـير، وكان رجـل أمريـكا الأول في المنطقـة، ويمتلـك جهـاز أمـن متطـور جـدًّا، عـلى الرغـم مـن ذلـك نجحـت

ثـورة يناير في إجبـار حسـني مبـارك عـلى التنحـي، وبعدهـا تبـارى زعـماء العـالم في مديـح الثـورة المصريـة. هـؤلاء الزعـماء أنفسـهم كانـوا يمدحـون مبـارك ويتجاهلـون قمعـه واسـتبداده كـما يتجاهلـون قتـل السـودانيين بميليشـيات الحكومـة اليـوم، لأنـه كان يحقـق مصالحهـم، لكـن عندمـا أثبـت المصريـون أنهـم شـعب حـي ومسـتعد للمـوت مـن أجـل الحريـة لم يملـك العالم إلا احترامهـم. ولا نذهـب بعيـدًا؛ الرئيـس السـوداني الأسـبق نمـيري كان لـه دعـم عـربي وأفريقـي وأمريكـي، وجهـاز أمـن قـوي جـدًّا بقيـادة اللـواء «الفاتـح عـروة»، وعندما انتفـض عليه الشـعب كان في زيـارة رسـمية إلى الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، فلـم يملـك العـالم حينهـا إلا أن يحـترم إرادة الشـعب السـوداني في الحريـة والديمقراطيـة.

فـكان الشـعب السـوداني يشـعر بخيبـة أمـل عندمـا كان يسـتقبل زعـماء الـدول العربيـة والأفريقيـة البشـير، ويعقـدون معـه الصفقـات المربحـة لبلادهـم. فهـذه مصالـح دول، فـلا تتوقعـوا مـن أي زعيـم أو رئيـس أن يدافـع عـن حقـوق السـودانيين بـدلًا منهـم. كل رئيـس دولـة يعمـل مـن أجـل تحقيـق مصالـح مواطنيـه وبلـده، وليـس لتحقيـق مصالحنـا، لأننـا لا نعنيـه مـن قريـب أو بعيـد، وثانيًـا: بوجـود هـذا النظـام سـتكون مواردنـا مهـدرة، ومـن ثَـمَّ سـيكون بلدنـا ضعيفًـا وذليـلًا وتابعًـا لهـم. لـن يسـاعدنا أحـد إذا تقاعسـنا نحـن في الحفـاظ عـلى وطـن حـر يسـع الجميـع.

عـماد في أثنـاء خروجـه مـن المكتـب، وهـو في طريقـه إلى

موقف سيارته، سمع صراخ زميله عبد الله، الضابط في جهاز الأمن، والمختص كما يقول بالمخربين وتعذيبهم. ألقى عليه التحية ثم سأله عن سبب تأخره عن الصلاة، فردَّ عليه بأنه مشغول مع هؤلاء الحرامية.

عماد: ماذا سرقوا؟

قال عبد الله: هؤلاء استغلوا أحداث الشغب الأسبوع الماضي وفتحوا مخازن ديوان الزكاة في مدينة الرهد، وأخذوا منها الدقيق والسكر والزيت، والآن المخازن خاوية.

فقال له عماد: أكيد هؤلاء شيوعيون ومخربون، أو من حركة عبد الواحد (حركة تحرير السودان).

إعلام النظام (الحرامي) الموجه من جهاز الأمن ينشر عشرات الصور والفيديوهات لبعض المتظاهرين الأحرار، ويقول إنهم حرامية ومندسون وحركات مسلحة، وهم يحملون ما خفَّ وزنه وطاب طعمه بعد أن اقتحموا مخازن ديوان الزكاة في أحد المدن، فهذا صحيح وشاهدناهم في الصور والفيديوهات، وكان البعض منهم يرفع علامة النصر، وفي بعض الفيديوهات صُوِّرهم وهم يسيرون في طريقهم بكل ثقة.

الهدف من هذه الصور، أراد الإعلام الموجه أو الإعلام المضاد للثورة أن يصور لنا مساوئ الثورات، والنهب الذي يحدث من الشماسة كما وصفتهم إحدى «حسناوات قناة النيل الأزرق»، والحرامية والمندسين. أحب أن أطمئنكم؛

هـؤلاء ليسـوا مندسـين ولا حراميـة ولا عمـلاء «الموسـاد»، إنهـم شـبان أو رجـال ونسـاء، مواطنـون سـودانيون ظُلِمـوا ثلاثـين عامًـا.

الـشيء الطبيعـي أن يخجـل الذي يـسرق أو يخـاف، أو يتوارى عـن التصويـر، لكـن هـؤلاء يظهـرون في الفيديوهـات والصـور وهـم يحملـون مـا اسـتطاعوا إلى حملـه سـبيلًا، ويبتسـمون للكامـيرا، وبعضهـم يلـوح بعلامـة النـصر بإحسـاس أن هـذا حقًّـا ومشروعًـا لهـم. السـؤال هـل فعـلًا إنهـم بـلا أخـلاق وهـل يعتـبر مـا فعلـوه سرقـة وعيـب، أو هـي براعـة ومهـارة؟! نحـن بالقطـع لا ندافـع عـن هـذا الأسـلوب ولا نـبرره، لكننـا نحـاول أن نفهـم أسـباب هـذه الظاهـرة وكيـف نعالجهـا؟

علـماء حكومـة الإنقـاذ الفاشـية منـذ ثلاثـين عامًـا كل يـوم في المسـاجد وفي القنـوات الفضائيـة وفي المـدارس يتحدثـون عـن مـكارم الأخـلاق وتأكيدهـا. أذكـر في ذلـك الوقـت كنـت في المرحلـة الثانويـة تقـام لنـا النـدوات والرحـلات بهـذا الخصـوص. ولَّـا كبرنـا أو وعينـا مـا شـاهدناه ويجـري عـلى أرض الواقـع رأينـا أشـياء مختلفـة تمامًـا عـن الـذي قالـوه لنـا في المـدارس وفي ندواتهـم.. فهـذا يقودنـا إلى الاعتقـاد بـأن المواعـظ وحدهـا سـتنشر الأخـلاق الفاضلـة أثبـت فشـله، وأنـه ينـم عن تفكـير متخلـف عـن عـصر أن أخـلاق أي شـعب تتشـكل طبقًـا لرؤيتـه للحيـاة التـي هـي نتـاج مبـاشر للظـروف الاجتماعيـة والسياسـية التـي يعيـش فيهـا. لا يمكـن اعتبـار الأخـلاق شـيئًا ثابتًـا منفصـلًا تمامًـا عـن الظـروف الاجتماعيـة والسياسـية،

مثلًا هؤلاء الشباب أو الرجال (الحرامية)، منعدمو الأمانة في نظر هذا الإعلام، هل كانت الدولة أمينة معهم ولم تسرقهم؟ لقد نشأ هؤلاء الشبان في بلد لا توجد فيه قواعد حقيقية تطبق على الجميع، وإنما وضعك الاجتماعي والحزبي يحددان مصيرك قبل اجتهادك وذكائك، القانون لا يطبق إلا على الفقراء والضعفاء، من يسرق (مروحة) يسجن، والتي سرقت (دجاجة) لأنها جائعة تضرب وتهان، على حين أن أصحاب النفوذ تعطل من أجل خاطرهم القوانين لتحافظ على مصالحهم، فيسرقون الملايين من العمولات، وأولادهم يدرسون في أحسن المدارس ويعالجون في أحسن المستشفيات. عندما يسقط آلاف الشهداء منذ قيام الثورة في مذابح متتالية، جرى القتل فيها بدم بارد أمام الكاميرات، فلا يعاقب قاتل واحد، وعندما يتصالح النظام مع كبار اللصوص مقابل مبالغ ضئيلة ويتركهم ينعمون بثرواتهم المنهوبة من هذا الشعب، ثم إنَّهم يعرفون أنهم بعد تخرجهم من الجامعة لن يحصلوا أبدًا على وظيفة إلا بالواسطة، بصرف النظر عن تفوقه، وآخرون يُمنَحون حتى الشهادة العلمية بمختلف التخصصات بالمجان.

إذًا لماذا نستكثر على هؤلاء المظلومين أن يقتحموا مخازن ديوان الزكاة، وهم يعلمون علم اليقين أن في دولة المشروع الحضاري، حتى الزكاة لم تُوزَّع بالعدل على الناس جميعًا من دون تمييز. وإنهم اقتحموا هذه المخازن لأنهم ببساطة فقدوا الإيمان بالقواعد العادلة في الدولة، ولو أن أحدًا

منهم تقدم بطلب لديوان الزكاة الذي اقتحم مخازنها بطلب تكلفة عملية ضرورية لوالده المحتضر أو لوالدته المريضة، ونُفِّذ طلبه وفق القانون، ومن غير تمييز، صدقوني لما اقتحم هذه المخازن أبدًا، بل سيحرسها من المعتدين، لأنه سيكون مطمئنًا إلى أن كل محتاج سيحصل بالضبط على مستحقاته التي كفلها له القانون في الدولة الذي يتساوى في ذلك ابن رئيس الوزراء مع ابن الكناس.

إن النظام السياسي في أي دولة يحدد الإطار الأخلاقي للمجتمع، فإذا أقام العدل سوف يجتهد الناس وهم مطمئنون على حريتهم وحقوقهم، أما إذا كان النظام ظالمًا وكاذبًا فلا يجب أن يندهش ويتعجب إذا فعل به الناس نفس ما يفعله بهم.

إذا كان الشبان الذين اقتحموا مخازن ديوان الزكاة وأخذوا حقهم الشرعي حرامية صغارًا، فإن الدولة هي الحرامي الأكبر.

شعب بهذه الأخلاق كيف يصفونه بالحرامي، وهو الذي يشهد له بالنزاهة القريب والبعيد، وحتمًا سينتصر. أحكي هذه الشهادة من صحفي خليجي:

قبل سنوات قدمت الخطوط التونسية للمجلة التي كنت متعاونًا معها دعوة لتدشين الموسم السياحي الجديد في تونس، فذهبت مع رئيس تحرير المجلة، وهو دكتور سوداني عظيم - رحمه الله - ودائما يدعوني معه في

كل دعواتـه ولقاءاتـه الصحفيـة. وجلـس في المائـدة بجوارنـا صحفـي خليجـي. وتعرفتـه ولـه معرفـة سـابقة بالدكتـور رئيس تحريـر المجلـة. وسـألنا عـن حـال السـودان وأخبـار الوضـع الاقتصـادي وعـن السـلام وعـن حـرب دارفـور.

وكان طبيعيًّا أن أسأله عـن بعـض التفاصيـل الدقيقـة التـي تطـرق إليهـا، وفي نهايـة حديثـه حكـى لنـا القصـة التاليـة:

بعـد تنفيـذ اتفاقيـة السـلام بـين جـزء مـن حـركات دارفـور المسـلحة والحكومـة السـودانية، كلفتنـي الصحيفـة أن أجـري مقابـلات مـع بعـض الشـخصيات مـن الحكومـة، ومـن الحـركات المسـلحة الموقعـة عـلى هـذه الاتفاقيـة، وكذلـك أخـذ عينـات مـن الشـارع السـوداني. أجريـت كل اللقـاءات المطلوبـة، وعندمـا أردت أن آخـذ رأي الشـارع قـررت أن آخـذ عامـلًا وبـكل تفاصيـل حياتـه مـع أسرتـه، حتـى يكـون توثيقًـا لي في أي عمـل آخـر، فاخـترت عامـلًا وقـررت أن أقـضي أطـول وقـت ممكـن معـه خـلال اليـوم في بيتـه، ووافـق فـورًا ورحـب بالفكـرة، وسـاعدني مراسـل الصحيفـة في ذلـك، فذهبـت معـه مـكان عملـه ثـم بعـد نهايـة اليـوم ذهبـت معـه إلى بيتـه.

حقيقـة ذُهلـت؛ لم أتخيـل أن يكـون هنـاك أنـاس فقـراء إلى هـذا الحـد؛ هـذا العامـل يعيـش في بيـت صغـير جـدًّا مـع زوجتـه وأطفالـه ووالدتـه، فهـي الأخـرى كانـت مريضـة، ومعهـم في البيـت نفسـه أيضًـا شـقيق زوجتـه، طالـب، وهـذا غـير الزائريـن مـن خـارج الخرطـوم، والبيـت بالـكاد يسـتطيع أن يعيـش فيـه هـو وبقيـة أطفالـه، وعـن الراتـب لا يسـتطيع أن

يعيش به حياة كريمة نصف الشهر.

لكن على الرغم من هذه الظروف الصعبة لا تتخيل كيفية الاستقبال والحفاوة والكرم، ودعوني معهم إلى الغداء، وأحسست بفرح بناته الصغار؛ كانوا فرحين بوجودي معهم، وفي نهاية اليوم أو بعد الساعات التي قضيتها معهم حدثت واقعة غريبة وهي التالية: بعد الوداع أخذت أغراضي وكنت متأثرًا من فقرهم، ولما كنت سأكتب عنهم مقالًا وسآخذ عليه مبلغًا محترمًا، قررت وأنا ذاهب أن أعطي البنت الصغيرة مائة دولار، فكان هو المبلغ المتوفر معي في تلك اللحظة، ومن غير أن يلاحظ والدها وفي أثناء وقوفنا في انتظار تاكسي يوصلني إلى الفندق، وكانت بنته معنا، فلاحظ والدها الفلوس في يدها سألها: من أين لك هذه الفلوس؟ قاطعته وقلت له مني أنا؛ تغير وجهه وقال إنه يجب أن تعيد المال وأن هذا عيب، فحاولت ولكن لم أستطع ثنيه عن قراره، وساد صمت بيننا ثم ودعتهم.

فسأله الدكتور ماذا استنتجت من هذه الواقعة؟

فقال: لقد علمني هذا العامل السوداني درسًا لن أنساه (عندما يعاني الإنسان كل هذا الفقر والقمع والظلم ويظل يحتفظ بشجاعته وكرامته، فإنه حتمًا سينتصر على الفقر وعلى الظلم)

تذكرت هذا الحوار في أيام الثورة، والشعب الفقير

المظلوم يقاتل ويواجه حكومة فاشية ظالمة، وفي هذا الأثناء شاهدت صورة الطفل الذي يحمل كيسًا ثقيلًا عليه؛ لا يستطيع أن يقف من ثقله، وبه ساندويتشات ويدعو المتظاهرين إلى أخذ الساندويتشات. أرسلته أمه وهي غير مبالية بالقنابل أو أصوات الرصاص الذي ينزل كالمطر فوق رؤوس الناس المسالمين. كم أنت عظيمة أيتها الأم السودانية الثائرة.

وكذلك شاهدت النساء في أم درمان وبحري وهنَّ يفتحن البيوت، ويقدمن الماء البارد والعصير للمتظاهرين مع الدعوات والزغاريد، وشاهدت كذلك أجمل منظر في حياتي؛ الساندويتشات في كيس كبير ومعلق على شجرة يأخذ كل إنسان جائع ما يشاء. هذا ما يدل على أننا لم نخرج للخبز ولا ثورتنا للخبز كما صورتها قناة الجزيرة.

وكذلك شدني منظر الشباب في هذا الزحام، وفي أثناء الرصاص فوق الرؤوس، والمعركة حامية الوطيس، يجمعون مبلغًا لمواطن حطمت ميليشيات الحكومة زجاج سيارته عنوة وهربوا، فأبت نفوسهم العفيفة الطاهرة التي لا تشبه أخلاق هؤلاء الحرامية، فلم يذهبوا إلا بعد أن وفروا المبلغ لهذا المواطن المتضرر، والغريب أنهم لا يعرفون بعضهم من قبل إلا في هذه اللحظة، وهذا يدل على سلميَّتهم. فعلًا إنه شعب عظيم حكمه أقزام أردوا تقزيمه.. وكان حتمًا أن ينتصر ويبني سودانًا جديدًا وعظيمًا، ويتعافى تمامًا من أي مرض أصابه به الاستبداد والفاشية الدينية.

في هـذه الأيـام التـي كنـت أرى فيهـا هـذا الجيـل يـصر عـلى التغيـير عـلى الرغـم مـن آلـة البطـش والقتـل، وبهـذه الحماسـة أرى جيـل التغيـير نفسـه، لكـن هـذه المـرة خـارج حـدود الوطـن، لكنهـم بالمفاهيـم الجديـدة كليًّـا نفسـها، ومختلفـة تمامًـا عـمَّا تعودنـا عليـه مـع أهـل الفـن والمبدعـين. الموقـف حـدث لفنـان ومطـرب مشـهور، وكان بصحبتـه إعلامـي ومذيـع في قنـاة فضائيـة معروفـة، كان في أيـام الثـورة وهم خارج السـودان في مدينـة حيـدر آبـاد، بـصرف النظـر عـن الأشـخاص، إنـما الموقـف نفسـه يعتـبر تحـولًا كامـلًا في المفاهيـم القديمـة لأهـل الفـن والمبدعـين والشـعراء مـن قبـل الجمهـور، فـكان الشـعراء في الجاهليـة وحتـى بعـد الإسـلام يؤلفـون القصائـد التـي تمـدح السـلطان وتمجـده، وكان هـذا هـو مصـدر رزقهـم وأكل عيشـهم، وكانـوا يتنقَّلـون بـين الأمـراء والحـكام. نجـد المتنبـي عـاش في بـلاط سـيف الدولـة الحمـداني ردحًـا مـن الزمـان، وكان يعيـش عـلى عطايـاه يمدحـه، وهـذا مـا يجعـل سـيف الدولـة الحمـداني في حالـة انتشـاء ويكيـل عليـه العطايـا حسـب نـوع جـودة القصيـدة. وبعـد وقـت مـن المديـح، وبعـد أن نبض مـا عنـده غـادر إلى حلـب ثـم إلى مـصر، فوجـد حاكمهـا كافـور الإخشـيدي، وظـلَّ معـه حتـى مـلَّ منـه وانقلـب عليـه، وألـف فيـه قصائـد هجـاه فيهـا وغـادر مـصر، ومـن روائـع هجـاء المتنبـي لكافـور هـذه القصيـدة المكونـة مـن 28 بيتًـا، والتـي أول أبياتهـا معـروف:

عيـدٌ بـأية حـالٍ عُـدتَ يـا عِيـد *** بـما مَـضَى أم لأَمْـرٍ

فِيـكَ تجدِيـدُ

أولى الـلـئام كُوَيفـيرٌ بـمَعذِرَة *** في كُلِّ لـؤْم وبـعض الـعُذْرِ تَفنِيـدُ

كانـت مهنـة المتنبـي هـي مديـح الملـوك مقابـل المـال، وهـذا يعتـبر نفاقًـا، حتـى إن كان شـعرًا جميـلًا، وجميـع شـعراء العـرب كانـوا بهـذه الطريقـة، فـإن لم يجـد المـال سرعان مـا ينقلـب عليه، وكان الشـعراء ينافقـون فـوق التصـور مـن أجـل المنافسـة، وتجـد الشـاعر يؤلـف قصائـد تذهـب إلى الـشرك بـالله، فمثـلًا شـاعر كان ينافـق الخليفـة المعـز لديـن الله الفاطمـي قـال: (مـا شـئت لا مـا شـاءت الأقـدار فأحكـم فأنـت الواحـد القهـار)

ويكـون الملـك في قمـة السـعادة، وكلـما نافقـت أكثـر زادت العطايـا، والنـاس يعتبرونـه إبداعًـا ويحفظونـه عـن ظهـر قلـب، وفي العصـور القديمـة في أوروبـا كان الفنانـون والشـعراء يعيشـون في رعايـة الحـكام والأمـراء، لكـن بعـد الثـورة الأوروبيـة تخلـص الغـرب مـن تبعيـة الفنانـين للملـوك والرؤسـاء، وأصبـح الفنـان يحكـم عليـه بمـدى علاقتـه بالعمل العـام ويعمـل ألـف حسـاب للجمهـور. لكـن مـا زال العـرب في الثقافـة القديمـة نفسـها. وفي كثـير مـن الأنظمـة الاسـتبدادية هنالـك علاقـة سريـة لا يعرفهـا كثـير مـن النـاس بـين الفنـان أو الكاتـب والمبـدع والنظـام، ولم تتغـير هـذه العلاقـة إلا بثـورة كـما حـدث في أوروبـا.

الـدول العربيـة مـا زالـت بعيـدة عـن جوهـر الحداثـة، ومـا

زالـوا بعقليـة المتنبـي منـذ عـشرة قـرون. ونحـن في السـودان شـئنا أم أبينـا ننتمـي إلى هـذه الثقافـة العربيـة، ومـا زال معظـم المبدعـين والفنانـين لا يـرون غضاضـة في علاقتهـم مـع النظـام ويتصالحـون معـه، ويصمُّـون آذانهـم عـن صراخ ضحايـاه ولا يـرون في ذلـك عـارًا ولا ينقـص ذلـك مـن قيمتهـم الأخلاقيـة، وتجـد كتابًـا يدافعـون عنهـم، هـل عـن جهـل أم مصلحـة لا أدري؟ هنـاك أدبـاء وكتـاب وفنانـون شرفـاء قاومـوا الطغيـان ودفعـوا ثمنًـا باهظًـا لمواقفهـم، أمثـال الموسـيقار أبـو عركـي البخيـت، الـذي قاطـع الغنـاء طيلـة حكـم الإنقـاذ، وفيهـم مـن رحـل ومـات في المهجـر رفضًـا للعيـش في وطـن ضاقـت بـه أرضـه، أمثـال الفنـان والملحـن والموسـيقار مصطفـى سـيد أحمـد، الـذي تـوفي بدولـة قطـر في عـام 1997 ينايـر، فكانـت آخـر محطاتـه في التنقـل والهجـرة وهـو مـا زال يتألـق في وجـدان الشـعب السـوداني حضـورًا وتأثـيرًا، ويشـبه المعـادن النفيسـة التـي تـزداد قيمتهـا مـع الأيـام، وفي حياتـه لا يقـف أمـام ظهـور المواهـب الجديـدة، حتـى الشـعراء كان يأخـذ القصيـدة ويُعدِّلهـا، أو أنـه كان يشـجع الشـباب والصاعديـن. وسـألته في مـرة مـن المـرات حـين التقيتـه وجلسـت معـه في القاهـرة عـدة مـرات عـن قصيـدة كان يلحِّنهـا، فقـال لي: «عدَّلتهـا، ولا أبالـغ إذا قلـت لـك إننـي أوشـكت أكتبهـا مـن جديـد» فـكان رجـلاً نبيـلًا وإنسـانًا مرهفًـا، ورحـل مصطفـى وخلـت السـاحة منـه، إلا أنـه مـا زال بيننـا الغائـب الحـاضر.

لقد مضى مصطفى وترك الساحة خالية تمامًا.. لقد اتضح لنا بعد غيابه حقيقة دوره وتأثيره وحجمه، وبعد رحيل مصطفى ظهرت حقائق كثيرة اتضح لنا حجم الكارثة والهجمة التترية الشرسة التي لحقت بالفن السوداني الأصيل، بعد انتشار مجموعة الخفافيش الغنائية التي انطلقت في ساحة الغناء واستباحت حتى كل تاريخنا الفني، وكانت سببًا رئيسيًّا في هبوط الذوق العام.

واتضح لنا أن العدد في الليمون، وأن مائة مطرب من هؤلاء الخفافيش لا يصنعون مطربًا واحدًا موهوبًا، وأن الساحة مليئة بمئات الأسماء ولكنها خالية تمامًا، إلا من القليل فكان تيارًا فنيًّا متكاملًا في كل شيء في الإحساس.. والأداء.. والقيمة.

كان إحساس مصطفى من أكبر عناصر نجاحه وتفوقه والتفاف الجماهير حوله؛ مصطفى يغني ويعني كل كلمة يقولها.. كان وهو يغني للحب يحب فعلًا.. كان وهو يغني للوطن فكان مناضلًا حقًّا.. وكان أداء مصطفى شيئًا مميزًا وفريدًا اختلف به عن كل مدارس الغناء التي جاءت قبله وبعده ولن تتكرر، وكانت القيمة الفنية هي الأساس الذي يرتكز عليه مصطفى في مسيرته كفنان.

فكان في آخر أيامه عندما اشتد عليه المرض يقول للناس إنه مريض ولا يقدر، وكانوا يعتقدون أنه يكذب، ولكنه فعلًا كان مريضًا جدًّا، لكنه كان يتماسك ويتمنى أن يعيش حتى يكمل الأغنية.. وعندما يسمع تصفيق

الجماهير كانت تعود إليه حيويته، ولا يصدق أحد أنه كان منذ لحظات يتأوه من الألم.

وبعد رحيله ما زال مصطفى فارس الأغنية الأول، وما زالت تطوف كل بيت سوداني على الرغم من انتشار آلاف الخفافيش التي أفسدت أجيالًا كاملة.

وكلما عادت ذكرى مصطفى بكينا فيه عمرًا جميلًا.. وفنًّا جميلًا وإنسانًا كان أجمل ما فيه الإحساس الصادق، وتحدثت عن مصطفى لأنني عايشت معه مرحلة من مراحله في القاهرة، فكان لا بُدَّ أن أقول عنه هذه الكلمات.. وفي الحقيقة جيل مصطفى هو الجيل المخضرم في الفن وفي كل شيء، ولم يكن من السهل في ذلك الجيل أن تخرج إلى الساحة مطرب أو مطربة، وكان الغناء اختبارًا عصيبًا لكل من يحاول الاقتراب من هذا الفن العريق.. كانت هناك لجان للاستماع تضع شروطًا قاسية للسماح بالغناء، وكانت هناك أحكام قاسية للجمهور، إذ كان قادرا على أن يكافئ الجيد ويمنع الرديء، وكان من السهل أن تضرب الجماهير المطرب إذا تجرأ وحاول الغناء وهو لا يملك الموهبة.. وكانت أحكام النقاد عنيفة وقاطعة، ولم يكن هناك مجال للمجاملات والصداقات والسهر والشللية.. ولكن الأمور تغيرت؛ ظهرت أجهزة حديثة تعطي الصوت الهزيل طاقة يجلجل من خلالها ويصل إلى آلاف المستمعين، ومع ظهور بعض القنوات التافهة والوسائط الحديثة، وبكل تأثيرها الطاغي في الجماهير، وكثر انتشار مستخدميها وأصبح من

السهل أن نجد صوتًا ضعيفًا هزيلًا مريضًا وقد تحول إلى نجم لامع، وتحولت هذه الوسائل الناقلة إلى واحدة من أكثر وسائل القبح ترويجًا وانتشارًا.. ثم كانت لغة المجاملات والسهرات، والتي جعلت وسائل الإعلام في أحيان كثيرة تنسى دورها ورسالتها.. وترتب على ذلك كله فساد أذواق المستمعين وأصبح من الصعب التمييز بين الغناء الجيد والغناء القبيح.

ولهذا انتشرت كل هذه الطحالب الفنية في ظل هذا المناخ السيئ الرديء.

وجاءت هذه الثورة وهي تغيير في كل مفهوم وهي بداية لمرحلة جديدة تتطهر فيها الأغنية والفنان من كل الشوائب التي لحقت بها، وكذلك لا ننسى الشاعر محجوب شريف الذي رفض العلاج على حساب حكومة الإنقاذ وهو يئن من الألم، وغيرهم من الشرفاء، لكن هؤلاء استثناء الذي يؤكد القاعدة ولا ينفيها. والمشكلة ليست في سلوك الفنان وإنما أيضًا في فهم الجمهور لواجبات الفنان؛ العرب سابقًا كانوا يتساهلون مع المبدعين المنافقين ويحفظون قصائدهم وهم على علم بنفاقهم وكانوا يطربون لها ويرددونها، كما يفعل الآن جمهور الفنانين السودانيين يحتفي بمبدعيه المنافقين ويتجاهلون مواقفهم المشينة في عدم الإدانة للقتل والاعتقال والقهر للجمهور الذي يحبه ويردد فنه، والذي حدث في حيدر أباد مع هذا الفنان والإعلامي المعروف إنها ظاهرة ثورية ومفرحة، وقبل هذه الحادثة لهذا الفنان أُلغِي

حفل لفنان آخر أيضًا مشهور في الدوحة، نظرًا إلى علاقته بأمن النظام الاستبدادي، وذلك برفض من الجمهور هذه الحفلة. سيبدأ الانتهاء من المفهوم القديم في علاقة الفنان بالسلطة.

معركة التغيير القائمة الآن ما هي إلا صراع بين ثقافة الماضي وثقافة الحاضر، ومن أهم شروط العقد الجديد من الآن فصاعدًا محاسبة الفنان أو المبدع أيًّا كان شاعرًا أو إعلاميًّا أو كاتبًا، ليس على جودة أعماله الفنية فقط، وإنما على مواقفه في المجال العام أيضًا. وأجمل ما سمعت لأحد طلاب حيدر أباد حينما قال للمذيع (أنت على عيننا ورأسنا، لكن موقفك هذا لا يشرف أبدًا، وتسقط بس) فهنا ربط إبداع المذيع بمدى موقفه من العمل العام، وأن الموهبة الفنية مهما كانت قوية وأصيلة لا تغتفر للفنان مدى موقفه من العمل العام، فمثلًا للفنان معجبون بفنه ويستمعون إليه ويرددونه، لكن حينما تقاعس عن أداء واجبه في التصدي للديكتاتور في قمعه للشعب وقتله للناس المسالمين في معسكر أردمتا بدارفور في يوم الحفلة نفسه كما قالوا له طلاب حيدر أباد، فلم يشفع له فنه الجيد.

من هنا على الفنانين والمبدعين والإعلاميين والكتاب أن ينتبهوا جيدًا؛ إن الموضوع يتعدى سلوك الأشخاص إلى مفهوم عدم الفصل بين الإبداع الفني والمواقف العامة. يعني ذلك أن الجمهور يقيمك بمدى مواقفك العامة، وليس بفنك فقط، فهذا هو التغيير الحقيقي.

عماد يتعرض لحادث مرور مؤسف

عاد عماد بسرعة إلى سيارته وهمَّ بتشغيلها، وبسرعة فائقة، حتى يستطيع أن يلحق بالموعد الذي التزم به مع أسرته الصغيرة. كان سعيدًا لأنه سيتمكن من رؤية أولاده وسيقضي معهم يومًا سعيدًا.

وهو في الطريق كان يكلمهم من خلال الهاتف، وهم يرتدون في ملابسهم الجديدة، لأنهم سيذهبون إلى بيت جدتهم وسيلتقون بأبناء خالاتهم وبنات خالاتهم. خاصة فطومة التي هيأت نفسها لهذه الزيارة منذ أيام وجهزت شعرها على شكل ضفائر عليها خرز ملون، وسألها إن كانت تريد أي حاجة كي يحضرها لها معه، فلم تطلب شيئًا سوى أنها تريده أن يأتي بسرعة.

قال لها: «أوكي يا فطومة حبيبة بابا وأم بابا أنا قربت أوصل».

وقالت له فطومة: «يلا يابا عشان ما نتأخر، كل يوم أنت بتقول بتجي وما بتجي، وبتقول إنك مشغول».

وفي أثناء السير، وفي أثناء حديثه مع أولاده، وكان يريد أن يكلم ابنه محمد فلم يستطع، وقبل أن يصل إلى البيت

حـدث لـه أمـر غريـب جـدًّا، هـو أنـه يفقـد الوعـي فجـأة.. في أثنـاء قيـادة السـيارة وارتطمـت السـيارة بجسـم صلـب، وأغمـى عـلى عـماد ودخـل في غيبوبـة.

وأتـت الشرطـة وجـرى التعـرف عليـه أنـه ضابـط بجهـاز الأمـن والمخابـرات، وجـرى الاتصـال عـلى إدارتـه، ونُقِـل إلى المستشـفى العالمـي التابـع لجهـاز الأمـن والمخابـرات، وتوجهـوا بـه إلى المستشـفى وجـرى الاتصـال بأسرتـه، ووصلـت زوجتـه ووجدتـه في غيبوبـة لم يفـق منهـا حتـى الآن، وظـل فيهـا وقتًـا طويـلًا يصـل إلى الشـهرين، وكان يعتمـد في التغذيـة عـلى الدربـات. وحُـدِّدت الحالـة أنهـا - تخثـر في الـدم - وعـدم وصـول الـدم إلى الدمـاغ مؤقتًـا، وهـذا مـا سـبب لـه غيبوبـة.. وكانـت زوجتـه تـأتي كل يـوم مـن الصبـاح حتـى السـاعة السـابعة مسـاءً، ثـم تذهـب ومعهـا أبناؤهـا أمـلًا في أن ينطـق ولـو كلمـة.

ثـم أفـاق عماد مـن الغيبوبـة في شـهره الثـاني، وبدأ يسـتحضر الـذي مـر بـه وحـاول التحـرك، لكنـه عاجـز عـن الحركـة، وكان يحـاول الـكلام، لكـن لسـانه لم يطاوعـه، وخـلال هـذه الشـهور مـرَّ بظاهـرة غريبـة، وهـي ظاهـرة تسـمى «الاقـتراب مـن المـوت»، وهـي ظاهـرة غـير طبيعيـة نـادرة الحـدوث، تتلخـص ماهيتهـا في أنَّ البعـض مِمَّـن تعرضـوا لحـوادث كادت تـودي بحياتهـم قـد مـرُّوا بأحـداث وأماكـن مختلفـة، منهـم مـن وصفهـا بالطيبـة والجميلـة، ومنهـم مـن وصفهـا بالـشر والعـذاب.

وبدأ عماد يستحضر الذي جرى شيئًا فشيئًا، ولم يستطع الكلام والحركة أيضًا، وكلما رأى ابنته فطومة التي تحضر يوميًّا مع والدتها وشقيقها محمد يبكي وتسيل دموعه، وسهام تحاول أن تخفي الدموع من أبنائه بمسحها بالمنديل، يجلسون وهو يشاهدهم فقط، لكنه لا كلام ولا حركة.

وفي الشهر الثالث بدأ عماد يتكلم ببعض الكلمات، ولكن حركته قليلة جدًّا، وفرح أولاده كثيرًا وكذلك زوجته، ولكنه كان حزينًا جدًّا لما رأى في تلك المدة التي غاب فيها عن الوعي في تلك الغيبوبة أعاد كامل ذكرياته منذ أن كان طالبًا في الابتدائي، وما فعله في الطلبة في المدرسة المتوسطة إلى الجامعة، وإلى آخر شخص اعتقله وعذبه.

وكان يحكي لزوجته بصوت ضعيف لصعوبة حركة لسانه.

وقال لها: إنه رأى أهوالًا من العذاب.

وبدأ يحكي: أنه كان في نفق طويل ومظلم ظلام دامس، وكنت أمشي فيه.. ثم أمشي.. وفي طريقي واجهتني صعاب لا حدود لها ولا أستطيع وصفها.. وكنت أرى نهاية النفق نورًا وأريد أن أصل إليه، وعندما اقتربت من نهايته وجدت أربعة رجال أقوياء يرتدون ثيابًا بيضاء يحرسونه ويحملون سيوفًا منعوني من العبور.

وقالوا لي: هذا هو طريقك ووجهوني إلى الاتجاه الآخر، وعندما توجهت يسارًا رأيت نفقًا آخر أكثر عتمة وظلامًا.

ولماذا لم تسمحوا لي بالمرور من هذا النفق حتى أخرج وأقابل أبنائي فهم في انتظاري.

فقالوا لي وبوجوه غاضبة: عندما تسترد الناس حقوقها، وعندما يسامحك من قتلتهم وأذيتهم.

وأجهش بالبكاء، وحاولت زوجته أن تهدئه وتخفف عليه.

وقالت له: هذه أضغاث أحلام وهلوسة.

صدقيني يا سهام الذي رأيته كان حقيقة.. وفي أثناء هذه اللحظة دخل عليه الدكتور وقطع حديثه، وسلم عليه وطمأنه، وقال لزوجته بإمكانه الخروج، وبالفعل كتب له الخروج، وطلب منه مراجعته بعد يومين من تاريخه.

وعندما حاول النهوض وجد يده في حالة غريبة جدًّا في ورم، ثم رجله اليمنى أيضًا، وللغرابة بالكاد يستطيع أن يحركهما، وحاول مرة أخرى لكنه لم يستطع أن يحركها.

وغياب يوسف شقيقه زاد من حجم معاناة سهام، فهو ذهب دبي بعد الثورة واختفى، وكان يتواصل معهم بالهاتف.. وطلبوا المساعدة بسيارة الإسعاف. وصل الإسعاف وأحضروا النقالة ووُضِع عليها وأوصلوه إلى المنزل.

أخذ عماد يتساءل: أنا لست مصابًا بمرض مزمن، ولم أعانِ أي مرض، وأمارس الرياضة بصورة طبيعية، ما

الـذي جـرى لي؟!

ويسـأل نفسـه مـا الـذي جـرى؟! فقـال هـل يـا تـرى دعـوة مظلـوم؟ إنهـا دعـوة تلـك المـرأة الكبـيرة التـي كانـت تنتظـر ابنهـا المعتقـل لتكملـة مراسـم زواجـه، ثـم خـرج لهـا جثـة هامـدة وزوَّرت شـهادة الوفـاة بأنـه تـوفي نتيجـة إصابتـه بالملاريـا؟

أم ذلـك الشـاب الطالـب بكليـة الصيدلـة الـذي أصيـب بفشـل كلـوي في أثنـاء فـترة التحقيـق؟ أم إنهـا دعـوة آخـر شـاب تركتـه للتعذيـب وخرجـت؟

وكان يسـترجع شريـط ذكرياتـه ويـده التـي كان يبطـش بهـا الضعفـاء والنسـاء والرجـال، حتـى الشـيوخ لم يسـلموا مـن هـذه اليـد التـي اليـوم لا يسـتطيع تحريكهـا.. وكان يكتـب بهـا اعترافـات الشرفـاء وهـم مكرهـين عليهـا بذنـب لم يقترفـوه ويـزور بهـا شـهادات الوفـاة.. وحتـى رجـلي اليمنـى لم تسـلم هـي الأخـرى.

وذهـب يتذكـر التجـارة التـي يعمـل بهـا مسـتغلًا وظيفتـه الأمنيـة لكثـير مـن المخالفـات، بالإضافـة إلى المخالفـة التـي يمنعهـا الدسـتور، وهـي مزاولـة مهنـة التجـارة مـع الوظيفـة الحكوميـة..

والبيـت والفيـلا التـي اشـتراها مـن كـم شـهر ويسـكن فيهـا الآن.

والسـيارة التـي يسـتخدمها، وسـيارة زوجتـه التـي يريـد أن

يغيرهـا إلى موديـل جديـد.. والمـزارع.. وبقيـة الأراضي.

ومـاذا أنجـز مـن عمـل خـير يحسـب لـه خـلال سـنيين عمـره الماضيـة؟

ومـاذا سـيعمل بعـد هـذا المـرض.. ومـاذا تفيـدني كل هـذه العقـارات والبيـوت.

والذيـن حرمهـم مـن الحيـاة بعـد أن تسـبب التعذيـب والتحقيـق معهـم بإصابـات دائمـة.

وكان يقـول لنفسـه وإذا التقيـت بأحـد الذيـن حققـت معهـم وسـببت لـه الأذى الجسـيم أو الذيـن تسـببت في فصلهـم مـن الخدمـة كيـف سـأدافع عـن نفـسي؟

لـو أراد أحـد مـن الضحايـا أن ينتقـم لنفسـه وأنـا بهـذه الحـال، ونظـر إلى نفسـه وضعفـه، مـاذا أقـول لـه سـامحني أنـا أخطـأت في حقـك؟

فهـل لـو أعطيـت كل مـالي وممتلـكاتي وعقـاراتي للضحايـا سـأعوضهم عـن الـذي فقـدوه مـن صحتهـم ومـن أعمارهـم التـي ضاعـت في السـجون وتسـببت أيضًـا في حرمانهـم مـن سـفرهم للعمـل بالخـارج وتـأذوا منـي؟

وفي أثنـاء هـذا الحديـث مـع نفسـه دخلـت سـهام زوجتـه ووجدتـه يبكـي وغـارق في دموعـه دمـوع النـدم والحـسرة وقـال لهـا: تدريـن مـاذا أتمنـى في هـذه اللحظـة؟

ماذا تتمنى؟

أريد أن أقابل جميع الضحايا حتى يسامحوني، فهذا هو ما طلبه مني حراس النفق حتى أعبر فكيف لي بذلك؟

وأين أجدهم؟

وأين هم الآن؟

وعماد كان في شدته وعافيته كغيره من المنتفعين والمستفيدين من النظام، كان يكره التغيير لأنه سيساويه بالناس، وسيُعاقب على المال المسروق وعلى القروض التي لم تُرجَع.. وهو في هذه الحالة والعجز هبت ثورة ديسمبر المجيدة وهرب كل رجال الأمن الذين كانوا يعذبون الثوار في المعتقلات إلا عماد، نظرًا إلى ظروفه الصحية وعجزه التام. فهو من الناس الذين كانوا لا يرضون أن تتكلم على رجال الأمن أو تقول رجل الأمن أخطأ أو أن الرئيس مواطن يمكن سؤاله فكان يجن جنونه.. فهذه هي الثقافة التي انتشرت في خلال النظام الفاشي لكن في الأنظمة الديمقراطية أنهم لا يقدسون الجيش أو الرئيس أو الشرطة.

كما حدث في انتهاكات سجن أبو غريب في العراق؛ كشف الصحفيون الأمريكيون هذه الفضيحة وطالبوا بمحاكمة الجنود المجرمين، فوجدوا تقديرًا من الشعب الأمريكي.

وسألت نفسي هل المواطن السوداني يتقبل مثل هذه الوقائع أن ينشر ويفضح جيش بلاده ويكشف عن

فساده؟ قبل الثورة لن يقبل أحد بذلك لكن الآن إلا قلة قليلة. وهذه فئة ما زالت لديها مفهوم تقديس الجيش والمؤسسات الأمنية الأخرى وتقديس الأشخاص فلا تثريب عليها بسبب عقود ظل السودان محصورًا فيها بين الفاشية الدينية والفاشية العسكرية التي حكمت السودان منذ الاستقلال وسرعان ما تنتقل سلوكات النظام أيًّا كانت إلى الشعب.. ونحمد لهذه الثورة مثول البشير كرمز للديكتاتورية أمام المحكمة في داخل قفص الاتهام، فهذه الوقفة وحدها في داخل القفص لها معنى نفسي عظيم للمواطن السوداني، وتعني كتابة تاريخ جديد. وكنا لا نعتبر الرئيس أو أي مسؤول هو موظف يخدع للمحاسبة. إن فكرة محاسبة الرئيس أو المسؤول كانت حتى وقت قريب ليست واضحة في أذهان السودانيين؛ كثيرون كانوا يعتبرون الرئيس والدًا للشعب ورمزًا للأمة، وليس موظفًا عامًّا قابلًا للمحاسبة، فكان من العيب في السابق أن تتحدث مجرد حديث عن فساد الشرطة، وكان من الخيانة أن تتحدث عن فساد الجيش.

وبعد ثورة ديسمبر المعجزة والتي كتبت تاريخ جديد للسودان وإلى الأبد، فكانت بين القوتين الفاشيتين العسكرية والدينية بشباب التغيير وبفضل دماء الشهداء، وهم أنبل من أنجب السودان، وبفضلهم سننعم بدولة القانون والعدل والحرية.. وأصبح الآن ممكنًا أن تؤكد احترامك للجيش ومع ذلك تطالب بمحاسبة بعض أفراد الجيش

المسؤولين عن انتهاكات أو جرائم من غير أن تُتهم بالخيانة.

بالإضافة إلى الفاشية التي انتقلت إلينا عدوتها من النظام وانتشرت في المجتمع أيضًا هنالك ظاهرة انتقلت عدوتها إلى الشعب كالنار بالهشيم، وهي عدم الاعتراف بالخطأ أبدًا، ودائما نحاول نلقي أخطائنا ومصائبنا لأي مبررات أخرى، فهذه حقيقة، وأنا لا أبرئ نفسي.

أتذكر في عام 2000 كانت أول وظيفة مدفوعة الأجر في حياتي في شركة خليجية، وكان رئيسنا المباشر بريطانيًّا، وكنت مهملًا في عملي بصورة لافتة للنظر بحكم عدم المسؤولية، بالإضافة إلى عملي الآخر، وهو متعاون في مجلة، ولكنه لم يتخذ قرار فصلي من العمل، لأنه كانت لي بعض المميزات الأخرى، وأنه كان يوبخني كثيرًا، فقررت ترك الشركة، فكانت مشكلتي ماذا أقول لوالدتي ولأصحابي في ترك هذه المميزات، فقررت أن أجد هذا المبرر: هذا البريطاني عنصري ويكره العرب والمسلمين، فكان أمامي اختياران، إما أعترف بالتقصير والفشل في أداء واجبي وعملي، وهذا مستحيل، وإما أن أرمي باللائمة على مديري وأرميه بالعنصرية وكرهه للمسلمين حتى أقنع نفسي بأنني مجتهد لكنني مظلوم.

التنصل من المسؤولية وإنكار الحقيقة ولوم الآخرين على أخطائنا منتشرة عندنا كثيرًا، خاصة عند الأجيال الحالية، ونادرا ما تجد من يعترف بأخطائه ولا يبررها. هذا يقودنا إلى أنه فعلًا أخلاق الشعب تتشكل طبقًا لرؤيته

للحياة التي هي نتاج مباشر للظروف الاجتماعية والسياسية التي يعيش فيها. إذا كان رئيسنا كاذبًا، ورجال الدين كذابين والوزراء كذابين وحرامية ولهم كتبة وإعلاميون كذابون، ويطبلون لكذبهم وسرقتهم، فماذا تتوقع من جيل بأكمله؟ عمري الذي عشت منه ٪70 في النظام البائد لم أسمع يوما أن مسؤولا اعتذر أو اعترف بأخطائه على الرغم من كثرتها وفجاجتها.

وإن النظام الحاكم في أي مجتمع يشكل نموذج السلوك فيه، فنحن في السودان جثم على صدورنا نظام فاشي لم يعترف يومًا بفشله أو بسياساته الخاطئة التي أدت إلى تقسيم الوطن وإشعال الحروب فيه، ولا يعترف بتبديد مليارات الدولارات في الفساد وفي مشروعات فاشلة، لا أحد اعترف بهذا الخطأ، ويرمي باللائمة على «الكفار»، وترسخت هذه الفكرة التنكرية في عقول كثير من أبناء هذا الجيل.

فكان أمام النظام خياران إما أن يعترف بأخطائه وفشله في إدارة الدولة، وهذا مستحيل طبعًا، وإما أن يرمي هذه الكوارث التي جرَّنا إليها على شماعة المؤامرات الخارجية، في حين أن كل المؤامرات التي ضد كرامتنا وضد حرياتنا وتطورنا من النظام، وينفذ فينا كل هذه المؤامرات ولا أحد سواه.

وكثير من السودانيين المتميزين المنتشرين في العالم في كثير من المجالات هاجروا إلى الغرب، وظل المناخ الديمقراطي ساعدهم في النبوغ، ولو ظلوا في بلدهم لقُضي على مواهبهم

بهذه العقلية المنغلقة التبريرية. جرى اختيار وزراء للمدة الانتقالية، فكان معظمهم من المهاجرين بسبب النظام وقمعه، فهؤلاء الوزراء يعترفون بكل خلل في وزارتهم، حتى عن عجزهم، لأنهم عاشوا في دول غربية درسوا وعملوا فيها لم يعتادوا الكذب والخداع، وأتمنى أن يكون جميع المسؤولين بهذه العقلية المنفتحة، ثم إنهم يدركون مهما كذبت أن الحقيقة ستظهر، والأفضل أن تكون موضع ثقة لشعبك وللعالم الذي أصبح قرية صغيرة يعلم بكل شيء.

لماذا كنا نعيش بعقليات منغلقة ونخادع أنفسنا ولا نعترف بأخطائنا؟

السبب الأول: هو محاصرتنا بين الديكتاتورية العسكرية والفاشية الدينية، وهي طريقة في التفكير أو ممارسة السلطة بحيث تحتكر الحقيقة..

والسبب الثاني: عشنا زمنًا غاب فيه تكافؤ الفرص، ومن ثَمَّ انتشر النفاق السياسي والديني، وأصبحت الفجوة عميقة بين العقيدة والسلوك، وأصبح الكذب وسيلة للترزق من أجل فرصة أفضل في الحياة، وأغلقت العقول وأصبحت تبريرية.

وعندما نسمع بالاعترافات من الوزراء تجد من ينبري لهم من كتبة النظام البائد الأفاقين الكذابين لا أندهش من ذلك، لأنهم هم من ظلوا يضللون الناس بكذب النظام

البائـد حتـى وصلنـا إلى الحضيـض في جميـع مناحـي الحيـاة، ويوزعـون صكـوك الوطنيـة والغفـران لمـن يكـذب!! ظهـروا يولولـون مـن صـدق الـوزراء لأن الصـدق نقيصـة أخلاقيـة في قاموسـهم!! وهـذا مـا أخذنـاه مـن تجربـة الحكـم الدينـي الفـاشي.

وكان عـماد في ظـل عجـزه يفكـر في هـذه اللحظـات أنـه لـو جـاء أحـد الضحايـا وأراد أن ينتقـم منـي ومـن فاطمـة بنتـي التـي أحبهـا فكيـف أسـتطيع أدافـع عنهـا وأنقذهـا؟

ونـسي أو كان يتناسـى حينـما كان في غمـرة السـلطة يُعـذِّب الضحايـا وتلفيـق التهـم إليهـم كانـوا أبنـاء، أو كانـوا أبـاء لأبنـاء.

وفجـأة تذكـر زمـلاءه في قريتـه ودفعتـه.. وظائفهـم.. وجهدهـم في الزراعـة.. وقناعتهـم بواقعهـم، وأنهـم لم يـؤذوا أحـدًا ولم يسرقـوا مـال أحـد، ولم يغضـب منهـم أحـد، وعاشـوا مسـالمين ويعيشـون حيـاة بسـيطة، وأولادهـم في صحـة جيـدة دون أي قلـق ولا خـوف مـن أحـد يريـد الانتقـام.

ثـم أقسـم بـالله ونـذر لنفسـه لـو عـادت لي قـوتي ورجعـت لي صحتـي مـن جديـد فلـن أعـود إلى هـذا العمـل مـرة أخـرى، سـأذهب أعيش عيشـة الكـرام بعيـدًا عـن السرقة والاسـتغلال.

إنهـا صحـوة ضمـير، ولكـن جـاءت متأخـرة وذكـرني قولـه تعـالى:{ وَأَنْفِقُـوا مِـنْ مَـا رَزَقْنَاكُـمْ مِـنْ قَبْـلِ أَنْ يَـأْتِيَ أَحَدَكُـمُ الْمَـوْتُ فَيَقُـولَ رَبِّ لَـوْلَا أَخَّرْتَنِـي إِلَىٰ أَجَـلٍ قَرِيـبٍ فَأَصَّـدَّقَ

وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ } المنافقون: ١٠

وجاء موعد مقابلة الدكتور، ولم يستطع عماد الوقوف إلا بمساعدة زوجته، وطلبوا إسعاف المستشفى لأنه لا يستطيع أن يمشي على رجليه؛ يحتاج من يحمله على النقالة.

ووصلوا إلى المستشفى، أخذوا عينات جديدة للدم وانتظروا النتيجة.

وقرأ الدكتور نتيجة التحليل وبدأ يشرح لعماد: الحالة التي سببت لك هذه الحادثة هي تخثر في الدم، وهو عدم وصول الدم إلى الدماغ، وهذا ما أفقدك الوعي، وهي حالة نادرة جدًّا، وكتب الله لك عمرًا جديدًا، لولا قدرة الله لكان الآن في عداد الموتى.

وصرف له الطبيب بعض الأدوية الإضافية، وقال له الدكتور: في نتيجة أخرى مهمة لعطل في النظام بالمستشفى سوف تظهر غدًا، وسأرسل لك الإسعاف لمساعدتك.

لم يستطع عماد أن ينام طوال الليل، وشريط ذكرياته المأساوي لم ينقطع حتى الصباح.

وكان عماد ينتظر موعد المستشفى عسى أن يكون في علاج لهذه الحالة الغريبة..

جاء الإسعاف ودخلوا عليه بالنقالة بعد أن ارتدى ملابسه بمساعدة زوجته، التي اصطحبته من جديد إلى المستشفى، ودخل على الدكتور الذي أكد له أن التفسير

الطبي لهذه الحالة أنها تختفي في الدم، ولكن ما يسبب هذا الشلل هذا ما لم أجد له تفسيرًا طبيًّا حتى الآن.

وطلب منه الاستمرار في الأدوية والضمادات. والكريمات وصرف له حقنًا يستمر عليها مادام حيًّا ولا يتوقف عنها، وكذلك الكريمات.

وسأل عماد الدكتور: هل من إمكانية للعلاج في خارج السودان؛ أنا مقتدر وأستطيع على التكلفة مهما كانت؟

وقاطعه الدكتور: قبل أن تطلب هذا الطلب أرسلت تقريرًا كاملًا عن حالتك قبل شهر منذ أن كنت في غيبوبة، ولم تفق لكل من مستشفى هايدلبرج الجامعي في ألمانيا ومركز مايو كلينك لعلاج السرطان في الولايات المتحدة، وكانت الإجابة متطابقة؛ لا أمل في علاج مثل هذه الحالة سوى الاستمرار مع العلاج الطبيعي والصبر.

وبعد سماعه هذا الخبر من الدكتور وقع عليه هو وسهام كالصاعقة، وعادا إلى البيت وكانا في حالة من الإحباط لا توصف، وعلى الفور اتصل عماد على سعادة العميد بلسان ثقيل وصوت ضعيف، وأخبره أنه لن يستطيع الحضور ولن يستطيع أن يواصل عمله.

وقضى في حجرته يومًا آخر لم يأكل ولم ينم، وكان يخاف النوم لأنه سيعيد له رؤية النفق المظلم وحراسه.. لم ينم إلا دقائق معدودة يستيقظ بعدها مفزوعًا.. ويحاول تحريك يده فلم يستطع، ورجله كذلك، ولسانه ثقيل في الكلام.

في الصباح دخلت عليه سهام وجدته في إعياء كأنه مريض بالسنين وممدًا على الفراش.

وكرر عليها السؤال نفسه، ماذا أفعل حتى يرضى عني رجال النفق وحراسه لكي أعبر بالجهة الأخرى المضيئة، وأجهش بالبكاء.

ولماذا تبكي يا عماد، أنت شجاع منذ أن عرفتك وكنت «مجاهدًا» في حرب الجنوب، ورأيت الموت آلاف المرات بعينيك.

لو رأيت يا سهام هول المصائب والظلام الذي رأيته ستعذرينني. إنني لم أرَ مثله في حياتي، أريد أن أقابل كل الذين ظلمتهم وعذبتهم. لكن أين سأجد من ماتوا بأثر التعذيب.

أخيرًا جاء خطاب الإعفاء من العمل بجهاز الأمن بعد أربعة أشهر من هذا العذاب الذي عاشه عماد وتعذبت بسببه زوجته، والتي شحب لونها وهزل جسدها وهي مشغولة الذهن والبال والتفكير في كيفية تدبر أمر البيت وتربية الأولاد.. وعماد الذي أصبح عالة ثقيلة أخرى عليها.. والمشوار لسه بدري.

وطلبوا من سهام الحضور لأخذ مستحقات زوجها.

وعماد في تلك اللحظات لا يهمه الإعفاء ولا المستحقات ولا مال الدنيا كله..

كل الـذي يريـده أن يقابـل مـن ظلمهـم وقتلهـم حتـى يعفوا عنـه ويسـمح لـه حـراس النفـق بالمـرور. وأصبـح هـذا شـغله الشـاغل ولا يـكلُّ ولا يمـلُّ مـن السـؤال عـن كيفيـة العبـور مـن النفـق. ولـو طلبـوا منـه كل أملاكـه وعقاراتـه ويسـامحونه لا يمانـع، ولكـن هيهـات.

حالـة «الاقـتراب مـن المـوت» هـذه الحالـة لا يوجـد تفسـير علمـي لهـذه الظاهـرة، وصاحبهـا إذا رأى أهـوالا وظلامًـا مثـل مـا رأى عـماد عندمـا يفيـق مـن الغيبوبـة ويعـود إلى الحيـاة فلـن يكـون كـما كان؛ سـتصيبه أمـراض نفسـية وجسـدية وحـالات تشـنج تلازمـه طـوال حياتـه.

وهكـذا كانـت نهايـة آخـر يـوم عمـل لعـماد الضابـط بجهـاز أمـن الدولـة القـوي.. وبدايـة حيـاة جديـدة مليئـة بالمتاعـب والخـوف والقلـق مـن الضحايـا أمـام عجـزه التـام.